الألسنية والتحليل الوظيفى للغة
عرض ونقد

الدكتور
ممدوح عبد الرحمن الرمالى
كلية دار العلوم ـ جامعة المنيا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقُلِ اعمَلوا فَسَيَرى اللهُ عَمَلَكُم
وَرَسُولُه والمُؤمِنُون وسَتُرَدّونَ إلى عَالِمِ الغَيْبِ
والشّهَادَة فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلون ﴾

صدق الله العظيم

[التوبة ١٠٥]

إهــــــداء

إلـــى معلمتى الأصيلة السيدة / *جليلة حسنين منصور* التى علمتنى أبجديات الحـــياة والمعـــرفة ، وشـــمعتى الـــتى تضيء لى السبيل بعد أن أظلمت عيناى ، وشراعى الذى يشق لى الأجواء بعد أن ضاق الزحام بمنكبىّ ، وكهفى الذى أخفى فيه ضعفى عن أعين الناس ، وساعدى وعونى يوم لم ينفعنى جهدى واجتهادى ، وصـــديقتى بعد أن دفنت أصحابى فى التراب ، ومركبى الذى يقلّنى بعد أن ضاق الطريق بقدمىّ

فعُدْتُ كذى رِجْلَيْنِ رجلٍ صحيحةٍ

ورجلٍ رَمَى فيها الزّمانُ فَشُلَّت

وكنت كذات الظلع لمّا تحاملت

على ظَلْعِها بعد العِثار استَقَلَّت

[١]الأهداف:

بــرزت نظريات واتجاهات لغوية متعددة تحاول أن تفسر طبيعة اللغة من زوايـا مخـتلفة . ومـن هذه الاتجاهات الاتجاه الوظيفى الذى يقف على الطرف النقيض للاتجاه التحويلى .

محاولـة تقديـم كثير من الضوابط والأسس المنهجية التى تحكم الاستعمال اللغوى .

إن دراسـة اللغة دراسة شكلية معزولة عن السياق الاجتماعى والثقافى لا يـزال أمـراً منقوصـاً ، لا يكـتمل إلا بوضع هذه الدراسة الشكلية على محك الاسـتعمال ، فهـو وحده القادر على أن يمنحها كثيراً من الحيوية ، والانطلاق ، والقـبول . على أن دراسة الاستعمال اللغوى لا تتم على وجهها الصحيح بمعزلٍ عـن الدراسـة الشـكلية للجوانـب اللغوية ، فالجانبان إذن متكاملان فى دراسة الظاهرة اللغوية ، ولا يجوز أن نستغنى بأحدهما عن الآخر .

يُعنَى الاتجاه الوظيفة بكيفية استعمال اللغة بوصفها وسيلة اتصال يستعملها أفراد المجتمع للتوصل إلى أهدافٍ وغايات معيّنة .

الوظائف النحوية للكلمة تتصل بترتيب الكلمات فى الجمل ، والوظيفة هى المعنى المتحصل من استعمال الكلمات على المستوى التحليلى أو التركيبى .

[٢]الموضوع:

يمكـن أن تقسم النظريات اللسانية المعاصرة وفقاً لتصورها لوظيفة اللغات الطبيعية إلى مجموعتين اثنتين :

- نظريات لسانية " صورية " .
- ونظريات لسانية وظيفية .

تضـم المجموعة الأولى جميع النظريات اللسانية التى تعد اللغات الطبيعية أنسـاقاً مجـردة ، يمكـن وصـفها بمعـزل عن وظيفتها التواصلية فى حين أن

المجموعة الثانية تشمل النظريات اللسانية التى تعتمد كأحد مبادئها المنهجية المبدأ الآتـــى : اللغـــات الطبيعـــية بنيات تُحدِّد خصائصها [جزئياً على الأقل] ظروف استعمالها فى إطار وظيفتها الأساسية ، وظيفة التواصل .

ويمكـــن التمثيل للنظريات اللسانية المنتمية إلى المجموعة الثانية بما يسمى بالبراجمانـــتاكس (pragmantax) الـــتى تمثل أحد التطورات الأخيرة لما كان يدعـــى " الدلالـــة التوليدية " (generative Semantics) والنظرية الوظيفية (Functionalism) المقترحة فى إطار مدرسة هارفارد الأمريكية والنظريات الوظيفية الأوروبية التى نذكر منها ، خاصة المدرسة " النسقية " (Systemics) ومدرســـة براج المعروفة تحت اسم Functional Sentence perspective وأخيراً النحو الوظيفى (Functional grammar) الذى اقترحه فى السنوات الأخيرة سيمون ديك (Simon dik) .

وينـــتج طبعاً عن هذا الاختلاف المنهجى المبدئى بين المجموعة الأولى من النظريات اللسانية والمجموعة الثانية اختلاف فى كيفية معالجة الظواهر وفى كيفية التمثيل لها داخل النحو :

تُتـــنَاول هذه الظواهر فى النظريات اللسانية المنتمية إلى المجموعة الأولى تـــناولاً صـــورياً صرفاً إما على مستوى التركيب بعدّها ظواهر تركيبية أو على مستوى التأويل الدلالى [بعدّها ظواهر دلالية] .

وعلى هذا جاء الاتجاه الوظيفى لسد النقص عند المدارس الصورية ووسيلةً من وسائل معالجة قضايا اللغة ومسائلها التى عجز عنها الاتجاه الأول وهذا الأمر مدار بحثنا .

وتكشـــف مـــناهج التحليل والتفسير عن أوجه تداخل شديد ؛ إذ نلاحظ أن أغلبها يوظِّف عناصر لا تنتمى إلى علمٍ بعينه ، بل إلى علوم مختلفة ، ويجتهد فى تحقـــيق نـــوع من المواءمة بين تلك العناصر المختلفة لتشكيل نسيج متشابك يتخذ شـــكلاً مـــن أشكال النظرية أو النموذج يمكِّنه من تحليل دلالة العلامات وتفسيرها التى تكوِّن النصوص .

فالاتجاه الوظيفى مدرسة من مدارس الفكر اللغوى المعاصر ، وهو يعنى بكيفية استعمال اللغة وبالقيمة الاتصالية للغة [١] . فاللغة فى نظر هذا الاتجاه عبارة عن وسيلة اتصال يستعملها أفراد المجتمع للتوصل إلى أهدافٍ وغايات .

وإذا أردنا أن نبحث عن صياغة منهجية تمثل جوهر اهتمام الاتجاه الوظيفى فإن ذلك يتمثل فى السؤال التالى : لماذا نستعمل اللغة ؟

قد اهتم اتجاه تشومسكى العقلانى بمجموعة العلاقات الرياضية المفسرة لميكانيكية اللغة ، وليس بوظيفة اللغة فى البيئة اللغوية أو كيفية أدائها للمعانى .

وأية نظرية لسانية تريد أن تحقق لنفسها الشروط العلمية المستعملة فى العلوم الفيزيائية والرياضية كالملاحظة والضبط والدقة ، ثم الموضوعية لابد أن تعتمد فى تحليلها اللسانى على مواد لغوية عالمية مختلفة . بالإضافة إلى ذلك تحتاج هذه النظرية اللسانية لأن تكون مرنة فى مبادئها النظرية والتطبيقية أى أنها قادرة على الاستفادة من مختلف المواد اللغوية المنتمية إلى اللغات البشرية العالمية. ولا توجد الملكة اللغوية [موضوع الألسنية] إلا فى شكل اللغات المتنوعة . ويتركَّز اهتمام الألسنى على دراسة هذه اللغات .

وتبدو لنا هذه اللغات بمثابة أدوات تواصل ، لذلك ينبغى أولاً أن نلاحظها وأن نصفها وهى تعمل ، ويقتضى ذلك أن نُحدِّد بالنسبة لكلٍ منها ، الطريقة التى تحلِّل بها الخبرة الإنسانية فى وحدات ذات معنى وأن نُبيِّن كيف تستعمل الإمكانيات التى تُوفِّرها لها أجهزة الكلام وقد قامت بعبء هذه المسئولية مدرسة براج .

وهناك عدة وجوه تميز بحوث مدرسة براج ، أولى هذه الوجوه هو العمل الذى قاموا به فى حقل الصوتيات الوظيفية (Functional phonology) ، فقد كان بحثهم للصوتيات بحثاً ممتازاً أثر على الكثير من الباحثين فى هذا الحقل. كما اهتموا بالدراسات التركيبية (Syntax) وكانت أعمالهم مفيدة ، وقد عالجوا عدة مسائل تتعلق بالدراسات الوظيفة اللسانية وغير ذلك ، كما اهتموا بالدراسات لعدة لغات مختلفة ، وأحد أعضاء هذا الاتجاه البارزين جاكوبسون ، وقد قدَّم حلاً

للـــتفريق بين الدلالة والمعنى ، ففى رأيه تجب دراسة اللغة فى تنوع وظائفها مما يستلزم تحليل العوامل المؤلفة لكل تواصل كلامى . هذه العوامل هى فى رأيه :

١- الرسالة .

٢- المرسِل .

٣- المرسَل إليه .

٤- الاتصال بينهما .

٥- نص الرسالة .

هذه العوامل تنتج وظائف مختلفة :

١- وظيفة تعبيرية .

٢- وظيفة نزوعية .

٣- وظيفة تسجيلية معرفية إحالية .

٤- وظيفة اتصالية .

٥- وظيفة شعرية .

وقد أعطى – جاكوبسون – هذا المثال ليدلل على هذه الوظائف :

- جملة مرحباً بك أيتها الفتاة (وظيفة اتصالية) .
- اجلسى (وظيفة نزوعية) .
- أنا سعيد برؤيتك (وظيفة تعبيرية) .
- أعتقد أنك لست وحدك (وظيفة إحالية) .
- لقـــد منحـــتك الشـــمس سمرة جيدة وأنت جميلة كالصيف (وظيفة شعرية) .

وهـــذا يقود المؤلف لأن يفرق بين مفهومى الدلالة والمعنى ، فليست كلمة (كرســـى) مؤشـــراً يدل على الكرسى ، ومحتوى هذه الكلمة أى الأصوات التى تؤلفها ، ليس الشيء ، بل شيء ما غير مادى وغير حقيقى بالقياس إلى واقع مادى

محـــدد : هـــو المفهوم أى (كرسى) إذن لا تدل العلامة على الشيء ، والمدلول مـــلازم للـــدال الذى هو تحكمى بالقياس إلى الشيء ، فلا تتصل كلمة (كرسى) بالشـــيء ولكـــنها تتضمن المدلول (أى المفهوم) على نحوٍ وثيق . فالعلامة لها وجهان مثل وجه الورقة وظهرها .

والجانب الوظيفى للغة ليس شيئاً منفصلاً عن النظام اللغوى نفسه ، فتداخل الأدوار Roles والمشـــاركين Participants فـــى الـــنظام النحوى فى كل لغة مرتـــبط ارتـــباطاً مباشـــراً بالوظـــيفة التى تؤديها الجمل فى السياقات المختلفة . ويـــزيدها لـــيرى هذه النقطة توضيحاً بقوله : " إذا كان بإمكاننا أن نغير مستوى الرســمية Formality فى كلامنا أو كتابتنا ، أو أن ننتقل بحرية من نمط سياقى معيـــن إلـــى نمـــطٍ آخر ، فنستعمل اللغة تارةً لتخطيط نشاط منظمٍ ، وتارةً لإلقاء محاضرة عامة ، وتارةً لتدبير شئون الأولاد ، فلأن طبيعة اللغة على شاكلة بحيث إن جميع هذه الوظائف مبنية حسب طاقتها الاستيعابية الكلية " (٢) .

[٣] المشكلة:

جعلت نظرية النحو التحويلى النحو عملية ميكانيكية تتحقق عناصره بشكلٍ آلـــى حيـــنما نتبع القواعد الموضوعة لابتداء تلك العملية . ولم تعط النظرية أى تبرير وظيفى لحدوث التحويلات فى مراحل مختلفة من توليد الجملة . لقد أخرجت مـــن الاعتـــبار الظروف النفسية التى يكون فيها المتكلم ، كما أهملت إهمالاً تاماً مسألة السياق الذى يقع فيه الكلام وعدّت اللغة مجرد نشاط عقلى .

وبظهـــور الاتجـــاه الوظـــيفى فى ميدان الألسنية تغيرت جوانب كثيرة فى نظـــرية النحو التحويلى ، وغير تشومسكى نفسه الكثير من أفكاره ، وطوّر جانباً آخر منها ضمن تفاصيل تتخذ سمات منطقية أو سيكولوجية . ولكن الإطار النفسى العام للنظرية بقى ثابتاً ، ألا وهو أن طبيعة اللغة هى نفسها طبيعة العقل .

ويســـتتبع ذلـــك أن هـــدف الدراسة اللغوية ضمن هذا الاتجاه ينحصر فى صياغة النماذج الشكلية المعبرة عن القدرات العقلية لمستعمل اللغة . وهذه المهمة ممكنة فى كل حالة ؛ لأن المتكلم يستعمل فى لغته عدداً محدداً من التراكيب .

وبدراســة هــذه التراكيــب المستعملة بالفعل يكون بالإمكان التوصل إلى مجموعة متناهية من الأحكام التى تصف السلوك اللغوى الصحيح للمتكلم .

والاستعمال المتكرر لهذه القواعد أو التحويلات المنبثقة منها هو الذى يمكِّن المــتكلم مــن إنتاج جمل لا نهاية لها (من الناحية المنطقية على الأقل) . وهذه القواعد نفسها هى التى تمكِّن المتكلم من الحكم على الجمل التى يسمعها أو يقرؤها ، فيرفض ما لا تعينه على فهم الجمل الجديدة التى يسمعها أو يقرؤها لأول مرة ، وهى التى تساعده على فهم الجمل الغامضة أو المزدوجة المعنى ، وغير ذلك من أمور ترتبط بالعمليات العقلية فى تمثل اللغة .

إنَّ هدف البحث الألسنى الأساسى محاولة بناء نظرية متكاملة تتناول اللغة بصورةٍ شاملة ؛ لذا يجب علينا أن ندرس اللغات من داخل البنية اللغوية وليس من إطــار خــارجي . صحيح أنك إذا بدأت دراسة اللغة من منظار رياضى منطقى ستحصــل على بعض القضايا اللغوية ولكنك لا تستطيع أن تحل المشكلة كلها من خلال هذا الإطار .

ففى رأيي أن تشومسكى وأتباعه لم يعطوا الحل المناسب للمشكلة اللغوية ، وأن المذهــب المــنطقى الرياضى التشومسكى ضيق جداً فهو لا يحتمل المشكلة اللغويــة الواقعــية بشكلٍ عام . والبرهان على ذلك أنه عندما يحاول أصحاب هذا المذهب أن يطبقوا نظريتهم على لغات عديدة ، فإن نظرتهم تخالف الواقع اللغوى لتلك اللغات . فهم يعتقدون أن كل لغة تتألف من مسند ومسند إليه ، ولكن هذا غير صــحيح ؛ لأن هناك حالات لا تتضمن ذلك ، ويمكن أن يكون هناك المسند دون وجود المسند إليه . ففى الفرنسية يمكننا أن نعبر عن وجود شيء دون المسند إليه ويمكن أن تقول فى الفرنسية : (il y a de Soleil) (هناك شمس) فليس فى هــذه الجملة مسند إليه (Subject) ، ولكن هناك المسند (predicate) وهو الشمس .

فالبنية اللغوية من وجهة النظر التحويلية إنما هى بنية معقدة تتضمن أشكالاً مختلفة من العلاقات المترابطة المتداخلة التى هى غاية فى التجريد . ولهذا ينبغى

على النظرية اللسانية أن تصاغ على شكل نظام استنتاجى (Deductive) حتى تتمكن من تفسير العلاقات المعقدة المجردة الكامنة فى اللغات البشرية على أساس التفاعل الحاصل بين عدد من المبادئ العامة والموحدة . فالمقصود هو أن نحدد هذه الظواهر فى خواصها الجوهرية أى فى أطر وأنظمة دقيقة .

وكلما كانت النظريات أدق أمكن حينئذ اللجوء إلى المثل الرياضية التى تحتوى على بعض ما تتضمن به هذه النظريات من خواص . وبعبارةٍ أخرى يصير من الممكن النظر إلى بعض هذه الخواص من وجهة نظر تجريدية .

إن النحو عند تشومسكى ليس تحليلاً للجملة فى شكلها النظمى فحسب ، ولكنه الوصف الشامل للغة ، أى أنه يشمل الفونولوجيا ، والنظم والدلالة .

وبيان ذلك – عند الوظيفيّين – أنّ التحويليين يصدرون عن وجهة نظرٍ ذاتِ امتدادٍ لديهم مؤدَّاها أنّ الظواهر اللغوية تنضبط ، من حيث المبدأ ، بشروط نحويّة خالصة قابلة للتشكيل على نحوٍ مُحكَم ، وأنّ العوامل غير النحويّة ممّا يلابِس النحو ويتداخل وإيّاه ، لا تؤدى إلاّ أدواراً فرعيّة فى تشكيل المستويات المتفاوتة لأصولية الجملة ، أو كونها مقبولة لدى أبناء اللغة .

ولكن على الرغم من قبول علماء لسانيين عديدين للنظرية المعيارية التى وضعها تشومسكى [٣] إلاَّ أنه بعد تمعن عميق فى طبيعة المستوى الدلالى (التفسيرى) فإنه وُجِد أن هذا المستوى غير قادر على تفسير عدة أمثلة لغوية عالمية تفسيراً دلالياً .

إنَّ أهم نقد وُجِّه إلى النظرية المعيارية هو ذلك الذى أتى من مدرستين لسانيتين أمريكيتين متشابهتين فى وجهتهما اللسانية ، الأولى : " مدرسة الدلاليات التوليدية " ، والثانية : " مدرسة النحو الوظيفى " .

إن المشكلتين الرئيسيتين اللتين واجهتهما النظرية المعيارية وفقاً لرأى نقّادها هما التاليتان :

[أ] سطحية البنية العميقة (المقدَّرة) وعدم دقتها .

[ب] عدم دقة الفرضية الدلالية المعروفة بـ " فرضية كاتز وبوستال " .

هاتــان المشــكلتان الدلاليتان شجعتا – تشومسكى – مرةً أخرى لأن يُعدّل النظرية المعيارية وذلك بتقديم عدة فرضيات لسانية .

لقــد كشف تشومسكى [٤] النقاب عن المشكلة الدلالية والحاجة الماسة لحلها فــى النظرية اللسانية ، وقد أراد تشومسكى من خلال هذا التعديل الدلالى أن يجد حلــولاً لــبعض المشــكلات المعجمــية لبنية المفردات الإنكليزية وبالتحديد بنية المفــردات الجــامدة والمشتقة . وهذا التعديل الدلالى دفع تشومسكى للاعتقاد بأن بعــض الحقــائق النحوية لا يمكن ضبطها إلا إذا قلّلنا من تجريدية البنية العميقة (المقدرة) ، والمقترحة عام ١٩٦٥ ، تلك التى يأخذ بها الاتجاه الوظيفى خصوصاً عــند أندريــه مارتينــيه الــذى يطلق على وظيفته الاتجاه الوظيفى الواقعى وكذا أصــحاب النحو الوظيفى المعجمى ، وقد أدى هذا بتشومسكى إلى أن يتخلى عن النظرية المعيارية مبتكراً النظرية المعيارية الموسَّعة .

[٤] وسائل المعالجة:

تبدو وسائل معالَجة الاتجاه الوظيفى لمسائل اللغة وقضاياها من خلال أسس الاتجاه الوظيفى ونظرته إلى اللغة ، مع التركيز على جانب يبدو مهماً هو انعكاس النظرة الوظيفية على كيفية تحليل اللغة .

كمــا يــربط الاتجاه الوظيفى بين النظام اللغوى وكيفية توظيف هذا النظام لأداء المعانى . ويتمثل هذا الربط فى الخيارات المتعددة المتاحة للمتكلم والمتمثلة فــى الأبنــية والتراكيب المختلفة الموجودة فى لغته . فوجهة النظر الوظيفية تقوم بدراســة اللغــة من وجهة نظر خاصة وبالإحالة إلى أسباب لغوية . لكنَّ مثل هذا الــنظر يميز الوظيفية عن كثير من فروع علم اللغة المهتمة بتحليل اللغة ، ومنها علــم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة النفسى [٥] وهى دراسة كل جوانب المعنى التى تهملها النظريات الدلالية ، فإذا اقتصر علم الدلالة على دراسة الأقوال التى تنطبق علــيها شــروط الصدق Truth conditions ، فإنها تُعنَى بما وراء ذلك مما لا تنطــبق علــيه هذه الشروط ، وقصر علم الدلالة على هذا النوع من الأقوال غير مسلم به فى النظريات الدلالية التى ظهرت منذ العقد الثامن من القرن العشرين[٦].

وتقـــوم أيضـــاً بدراسة جوانب السياق aspects of context التى تُشفَّر شـــكلياً فـــى تراكيب اللغة وهى عندئذٍ جزء من مقدرة المستعمل (٧) . وهى أيضاً فـــرع مـــن علم اللغة يبحث فى كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم Speaker intentions ، كمـــا أن التراث الشفوى المنطوق أو " اللغة غير المستقلة " تركز علـــى الوظيفة الشخصية المتداخلة وتتطلب مساهمة فعَّالة من المتلقى ؛ لأن يقدم المعرفة الاجتماعية .

المشـــكلة الأساســـية لكل نظرية نحوية هى العلاقة بين الصورة الخارجية للجملـــة (المبـــنى) والبنـــية الداخلية (المعنى) ، أو بين البنية المحمولية وهى العلاقات الدلالية (المحمول مع موضوعاته) وبين البنية المكونية وهى العلاقات التركيبية بين المكونات كما تنتظم فى السطح .

ويهمـــنا هنا ما أدخل على النموذج من أطراف مختلفة لها مشارب متباينة أثـــرت طـــرق التحليل ، فبعد أن كانت آلة التحليل عند تشومسكى (٨) فى المكوِّن التركيـــبى هـــى عبارة عن مجموعة من القواعد مهمتها توليد كل الجمل النحوية مقـــرونة بأوصـــاف بنيوية تبين كيف تأتلف الأجزاء لتكون الجملة فإنه فى نظرية المعـــيار الموســـعة (٩) . قلـــص عدد التحويلات وأدوارها بعد أن أدخل القواعد المعجمية .

ويلاحـــظ هنا تراجع تشومسكى (١٠) عما دافع عنه بقوة وهى فكرة استقلال التركيـــب ، التى تعمل العناصر التركيبية وفقها فى استقلال عن عناصر مكونات النحو الأخرى . هذه المكونات لا تؤدى إلا أدواراً " تأويلية " ، والاندفاع بقوة فى الوقـــت ذاته نحو إدخال المكون الدلالى ثم الاعتماد بقدرٍ أكبر فى التحويلات على الـــتأويل الدلالـــى ، حيـــث تحدد أن التأويل الدلالى للجملة يتوقف على وحداتها المعجمـــية وعلى الوظائف والعلاقات النحوية الممثلة فى البنى التحتية التى تظهر فيها .

وبهذا التطور عادت الوظائف النحوية من جهة والعلاقات النحوية من جهة أخـــرى إلى الظهور وأخذت مكاناً بارزاً فى النموذج الوظيفى فى الأساس ولكنها

تأثــرت بتحلــيلات النموذج التحويلي . فتحددت الوظيفية بصورةٍ أدق فى النحو العلاقـــى ، حيث يرى جونسون [١١] أن هذه العلاقات النحوية يجب أن تظهر فى صياغة عدد من القواعد أو المبادئ الكلية التى تحكم مسألة وجود القواعد ومسألة انــتفائها . وتــتعلق مسألة الوجود بمعرفة أنواع القواعد التى يمكن أن نجدها فى اللغات الطبيعية ، أما مسألة الانتفاء فتتعلق بمعرفة الشروط التى يمكن ضمها للغة ذات خصائص معينة أن تتوفر على قاعدة معينة تنتمى إلى مجموعة قواعد ممكنة فـــى لغة واحدة – من هنا فإن الألسنية الوظيفية تتميز ، فى العمق ، عن غيرها ، لجهـــة إدراك الوظيفييــن أن الإمكانـــية الوحيدة للنفاذ إلى اللغة الإنسانية إنما تتمّ بواســطة الألسن [١٢] – وبذلك تغيرت المكونات الفرعية التى تنسّق قواعد النحو وظهــر المكــوّن الدلالى بوصفه مكوناً محورياً رغم تأكيد سويرن (Seuren) بأن التركيب الدلالى يقر بأنه ليس هناك مكون دلالى ولا بنية تركيبية .

إن البنـــية التحتـــية الوحيدة هى التمثيل الدلالى ، والقواعد التحويلية تحول التمثيل الدلالى إلى بنية سطحية [١٣] .

إلـــى جانــب نجــد المكون التركيبى والمكون الوظيفى والمكون التحويلى والمكــون الصــوتى ... تشترك جميعها فى بناء بنية الجملة وتحليلها . وفى هذا التصـــور للنموذج تتفاعل عدة أنساق من القواعد تحكمها مبادئ مختلفة (وبسيطة فيما يبدو) بهدف رصد ظواهر معقدة .

ويعد الوصف الوظيفى وسيطاً بين البنية المكونة والبنية الوظيفية التى تمكّن من تسجيل العلاقات النحوية الواردة والمعلومات الضرورية للتأويل الدلالى .

تــرى الألســنية أن الألسنى إذا بحث فى اللغة فإن عليه أن يكشف حقيقة العمــل اللغوى ، وكيف تعمل العناصر اللغوية ضمن بنية اللغة . فإذا حصل خطأ فـــى تلك البنية فإنه يعرف كيف يعالج هذا الخطأ ويصححه . فعلى الباحث اللغوى أن يدرك كيف تتغير اللغة وعليه أن يدرك حالة سلامة اللغة وصحتها .

وكـــل تركيـــب يــؤدى وظيفة مختلفة ؛ لأنه يمكّن المتكلم من تنظيم كتل المعلومات طبقاً لظروف الكلام ، فصور التعبير المختلفة الممكنة عن جملة رئيسة

تعد مترادفة ؛ لأن كل واحدة منها تركز على جانب معين من الحدث ، وبذلك فإن لكـــل واحدة منها قوة تعبيرية متميزة مستمدة من الدور الذى يؤديه كل أسلوب فى الحياة الاجتماعية . والاتجاه التحويلى يعد صور التعبير المختلفة عن جملة واحدة مجـــرد صـــياغات تعبـــيرية متفرعة عن الجملة الرئيسة ، ويمكن التوصل إليها بتطبـــيق القواعد التحويلية على الجملة الرئيسة . وأما التأويل الدلالى الذى يرتبط بهذه الجمل فهو واحد فى جميع الأحوال .

والعلاقات القائمة هنا بين الجمل إنّما تتم من خلال الوحدة العضوية الناتجة عـــن التراكيب النحوية المعقّدة ، فالجملة بعدّها بنية متناسقة محتاجة إلى علامات دالـــة علـــى معانيها واستقامتها الشكلية . والحروف موكول إليها هذا الدور وفقاً لآراء الاتجـــاه الوظيفى مع أندريه مارتينيه (١٤) ؛ إذ هى عنده وحدات نحوية دالة علـــى الوظيفية التى تحققها مركبات أخرى فى بنية الجملة وهى محددة العدد فى اللغة وتنقسم الوظائف عنده إلى ثلاثة أقسام : الحروف العاملة وحروف العطف ، والعلامـــات الإعرابية ، فهى مركبات وظيفية دالة على المعنى النحوى ، ويمكن إرجاعها إلى وحدات تحتاج إلى تكملة لتحقق المعنى المطلوب .

معـــروف أن الحرف كان من بين أقسام الكلام الوحيد الذى توضح تعريفه تعـــريفاً تركيبياً ؛ إذ إن معناه لا يكون إلاّ فى غيره وهو كالعلامة بجانب الاسم أو الفعل ، فالحرف ضرورى تارةً فى مجرى تعدية الفعل إلى المفعول وأخرى مبيّن لقيم دلالية سيمتها الإيجاز والاختصار وهو معوّض لمعنى الفعل فى بناء العلاقات النحوية فيتم به عندئذٍ الإسناد .

وأهم أركان الحدث الكلامى النص والموقف أو السياق والمتكلم والمخاطب ، وبيـــن هـــذه العناصـــر علاقات تجاذب قوية تسهم بدور فعال فى تفسير النص تفســـيراً مقـــبولاً ، فالعلاقـــة بين النص والمتكلم علاقة إنشاء تكملها علاقة النص بالمخاطب وهى علاقة فهم . ويحدث التبليغ باكتمال الوصل بين هذه العلاقات فى سياقٍ مناسب .

ومـــن الســـمات التى تطبع عمل براون ويول هى جعلهما المتكلم / الكاتب والمســـتمع / القارئ فى قلب عملية التواصل ؛ إذ لا يتصوران قيام عملية تواصل بـــدون الأطـــراف المساهمة فيها ، بل لن يتسنى فهم وتأويل التعابير والأقوال _ الخطـــاب بصفة عامة) إلا بوضعها فى سياقها التواصلى زماناً ومكاناً ومشاركين ومقامـــاً ، هـــذا لاعـــتقادهما الراســـخ بأن المتكلمين / الكتاب هم الذين يملكون المواضيع والافتراضات المسبقة والمستمعون/ والقراء هم الذين يؤولون ويقومون بالاستدلالات ، وبمعنى أعم أن الناس هم الذين يتواصلون لتحقيق مآرب وأغراض متعددة .

يفهـــم مـــن هـــذا أن الباحثين يعيدان إلى الإنسان ، بوضعه فى قلب عملية التواصـــل ، ســـلطته اللغوية التى جردته منها بعض الاتجاهات اللسانية بتركيزها علـــى اللغـــة أشكالاً ، أى باتخاذها اللغة هدفاً أولاً وأخيراً للبحث . ومن ثم وضع بـــراون ويول تمييزاً فاصلاً بين لسانى يتعامل مع اللغة إنتاجاً وبين محلل يجعلها عملية ، وهذه ميزة تضاف إلى السابقين .

لقـــد وضع الباحثان هذا التمييز الأخير بناءً على الفرق بين المعطيات التى يدرسها اللسانى وبين تلك التى يعالجها محلِّل الخطاب .

فمن الملاحظ أن اللسانى – حسب رأى براون ويول – يضع معطياته ويقعِّد لها ، فى حين أن محلِّل الخطاب يعتمد بالأساس على الخرج اللغوى لشخصٍ آخر غـــير المحلِّـــل . هـــذا يعـــنى أن اللسانى " لن يبحث عن تفسير للعمليات الذهنية المشتملة فى إنتاج مستعمل اللغة لهذه الجمل ، ولن يهتم بوصف السياق الفيزيائى والاجـــتماعى الـــذى تظهر فيه تلك الجمل ، وإنما سيقتصر على معطيات يضعها محـــاولاً إنـــتاج مجموعة من القواعد الشاملة الاقتصادية التى ستفسر كل الجمل المقبولة فى معطياته والجمل المقبولة فحسب " (١٥) .

فـــى حين أن محلِّل الخطاب لا يهدف إلى وضع قواعد صارمة وإنما إلى تتـــبع مظهر خطابى معين للوقوف على درجة تكراره من أجل صياغة اطراده ، بمعنى أن هدفه هو الوصول إلى اطرادات وليس إلى قواعد معيارية ، باعتبار أن

معطـــياته خاضـــعة للســـياق الفيزيائى والاجتماعى وأغراض المتكلمين واستجابة المستمعين ، إلخ ، لذلك يتبنى محلِّل الخطاب " المنهجية التقليدية للسانيات الوصفية محـــاولاً وصف الأشكال اللغوية التى ترد فى معطياته ، دون إغفال المحيط الذى وردت فـــيه . فمحلِّـــل الخطـــاب يحاول أن يكشف الاطرادات فى معطياته وأن يصفها"[١٦] .

على أن الاطرادات التى يصل إليها محلِّل الخطاب لا ترتبط بالإنتاج وإنما بالخطاب كعملية . ويعنى الإنتاج (التعامل مع وحدة لغوية كإنتاج) دراسة الجملة (أو النص) كما هى على الصفحة بمعزلٍ عن المرسل والمتلقى والسياق ، بينما يعـــنى الـــتعامل مع اللغة كعملية أخذ جميع أطراف التواصل (المرسل ، المرسل إلـــيه) ، الرســـالة (نوعها) ، السياق ، إلخ ، بعين الاعتبار ، وقد عبر المؤلفان عـــن هذا الرأى الأخير كالتالى : " سنعتبر الكلمات والعبارات والجمل التى تظهر فـــى التدويـــن النصى لخطاب ما بينه على محاولة منتج (متكلم / كاتب) إيصال رسالة إلى متلقٍ (مستمع / قارئ) .

وســـنهتم علـــى الخصوص ببحث كيفية وصول متلقٍ ما إلى فهم الرسالة المقصـــودة من قِبل المنتج فى مناسبة معينة ، وكيف أن متطلبات المتلقى المعين ، فـــى ظروف بعينها ، تؤثر فى تنظيم خطاب المنتج . وتتخذ هذه المقاربة الوظيفة التواصـــلية مجـــالاً أولياً للبحث ، ومن ثم تسعى إلى وصف الشكل اللغوى ، ليس كموضـــوع ســـاكن ، وإنما كوسيلة دينامية للتعبير عن المعنى المقصود "[١٧] ، وهكذا ، بإلحاح براون ويول على ضرورة مراعاة الأطراف المشاركة فى عملية التواصل ، يعلنان فشل المقاربات الأخرى التى تتعامل مع اللغة ، تصفها وتحللها وتقعِّـــد لها ، إنتاجاً ساكناً يقتضى ذلك أن هذه المميزات ليست حاجزاً فاصلاً بين معالجة براون ويول وبقية المقاربات الأخرى اجتماعية ، ونفسية ، واصطناعية ، ومعرفية ، بل إنهما يستمدان كثيراً من مفاهيمهما من هذه الأخيرة معمقين النقاش حولهـــا مســـائلين إياهـــا فـــى ضوء الخطابات اليومية وليس فى ضوء خطابات مصنوعة .

وعلـــى هـــذا فالحديث عن النص معناه التركيز على اللغة . ومن هنا تأتى أهمية دراسة النص لتطوير الاتصال اللغوى بين البشر وتقويته وتحسينه ،"فالمبرر الأكبر للدراسات اللغوية هو تحسين الاتصال " (١٨) .

واللغة بهذا المفهوم لا تكون إلا نصاً مهمته التوصيل ، ويستحيل أن نوصل شـــيئاً إذا لم يكن الخطاب مفهوماً ولهذا ينبغى للخطاب – أى خطاب – أن يكون قابلاً للفهم ، وتلك هى البديهة الأساسية لقواعد الكلام .

ومـــن هـــنا يكون الاتصال واقعاً عن طريق النص لا عن طريق الكلمة أو الجملـــة المجردتين من النصية (١٩) . وتظهر عناصر الاتجاه الوظيفى من خلال المفاهيم الأساسية التى تكوّن محور آراء " مارتينيه " الألسنية ومنها وظيفة اللغة .

فوظيفة اللغة عنده هى التواصل فى إطار المجتمع الذى تنتمى إليه ، وهذه الوظـــيفة تؤديهـــا اللغات بصورة أساسية ، بالرغم من اختلاف بنيتها وتباينها فيما بينها ، فاللغة مؤسسة إنسانية يرتدُّ كيانها إلى المجتمع الذى يتكلمها ، وهى الوسيلة التى تُتيح للإنسان بصورة أساسية للقيام بعملية التواصل بينه وبين أفراد بيئته .

ويُـــراعى " مارتينيه " بقية الوظائف المختلفة التى يمكن أن تؤديها اللغة إلا أنه يرى فى الواقع أن الوظيفة اللغوية تتركز فى الحقيقة حول عملية التواصل أو عملـــية الـــتفاهم المتبادل ، فاللغة هى الأداة التى يتوسل بها أفراد المجتمع لإقامة الاتصـــال بعضهم ببعض كما يرتبط تطور اللغات عبر الأزمنة بحاجات التواصل الـــتى تقتضـــيها حياة المجتمع ؛ إذ ليست اللغة بالنسبة إلى " مارتينيه " آلة ناسخة تُعطـــى فى الواقع صورة الأشياء كما هى وتنقلها نقلاً آلياً ، بل إنها بُنى متراصة ومـــتكاملة يـــرى مـــتكلمها الواقع ، من خلالها ، ويطل عبرها على عالم الأشياء والأحاســـيس ، فتترتـــب الخبرة الإنسانية ، والحالة هذه وفقاً للتنظيم اللغوى الذى يحمل هذه الخبرة ويوصلها إلى الآخرين .

فتعلم لغة جديدة ، مثلاً ، لا ينجم عنه وضع سمات أو عناوين جديدة لأشياء معـــروفة ، بل يُكسِب متعلمها نظرة تحليلية مغايرة ، فى إطار التواصل ، يعتادها

مـــن خلال معرفته للبنى اللغوية الجديدة التى تعكس ، فى حقيقتها ، الواقع والعالم بطريقة مختلفة عما فى لغته الأم .

ينطـــبق ، أيضـــاً ، المفهـــوم الوظيفى للغة على عناصر اللغة ؛ لذا يرى "مارتينيه " أن دراسة وظيفة العناصر اللغوية هى إلى حدٍّ كبير ضرورية ؛ وذلك لأنَّ لهذه العناصر وظيفة أساسية من حيث تأمين التواصل بين الأفراد .

ويُركِّـــز على أن البنية مظهر من مظاهر وظيفة اللغة ، لذا لا تكمن أهمية الدراســـة الألسنية فى كون العناصر اللغوية تُنتَظم ضمن بنية اللغة ، بل فى كون هذه البنية قائمة بهدف تحقيق الوظيفة اللغوية وتأمين استمرارها .

[٥] خصائص النموذج الوظيفي :

يهـــدف التحلـــيل اللغوى الوظيفى إلى بيان الوظائف التى تؤديها اللغة فى البيـــئة اللغويـــة والإطـــار النظرى الذى يتم من خلاله التحليل مُصمّم لأداء هذا الغـــرض العـــام ، ولذلك لا يحفل الوظيفيون بجدلية النظرية اللغوية وإلى أى حد تتمـــثل فـــيها الكفاية الوصفية descriptive والكفاية التفسيرية explanatory adequacy ، فالـــنظرية ليست هدفاً وإنما هى إطار يتم من خلالها الكشف عن الخـــيارات المـــتاحة أمـــام المـــتكلم . يقول هاليدى " إننا لسنا بحاجة إلى نظرية متخصصة إلى حدٍ كبير بحيث يستطيع المرء أن يفعل القليل بها " (٢٠) .

ويقـــول أيضـــاً " إن الكلام المنطوق يحتاج إلى شكلٍ مرن وليس إلى بناء جـــامد مـــن التمثيل الشكلى " (٢١) ، ونجد هذا المنحى واضحاً عند لغويي مدرسة بـــراج الذين أجروا تحليلاتهم من خلال " مفاهيم وظيفية " وليس من خلال نظرية بالمعـــنى الذى نجده عند التحويليين أو البنائيين الأمريكيين ، ونجده أكثر وضوحاً عـــند المتأخرين من الوظيفيين أمثال دل هايمز Del Hymes الذى نلاحظ على منهجه أنه عبارة عن مقترحات إجرائية أكثر مما هو نظرية .

فاللغــة فى تصور مدرسة براج " إن هى إلا نظام من العلائق ، ولكن مع تركـيز علــى الجانب الوظيفى (أى القيمة اللغوية للوحدات المكونة للتركيب) . وطبقوا هذا المبدأ على الفونولوجيا بوجه خاص .

ويعد النحو الوظيفى (Functional grammar) الذى اقترحه سيمون ديك فى السنوات الأخيرة ، النظرية الوظيفية الأكثر استجابة لشروط التنظير من جهــة ولمقتضيات " النمذجة " للظواهر اللغوية من جهة أخرى ، كما يمتاز النحو الوظيفى على غيره من النظريات بنوعية مصادره ، فهو محاولة لصهر بعض من مقــترحات نظــريات لغوية (النحو العلاقى) Relational grammar نحو الأحــوال (case grammar) " الوظيفــية " (Funcionalism) ، وكــل نظــرية مــن الــنظريات العلمية تختار نموذجاً صورياً وسيلة من وسائل محاكاة الموضــوع أو التمثــيل له ، وما هو مُثار هنا هو مسألة كفاية النموذج ، وقبوله لإمكانـــات لا يقــبلها نموذج آخر ، أو إلغاؤه لهذه الإمكانات ، مما يعطى للنموذج بعداً تجريبياً ، إضافة إلى الخصائص الصورية .

ويمكن تلخيص المبادئ المنهجية الأساسية المعتمدة فى النحو الوظيفي فيما يلى :

١- وظيفة اللغات الطبيعية " الأساسية " هى وظيفة التواصل .

٢- موضــوع الــدرس اللســانى هــو وصــف " القــدرة التواصــلية " (communicative competence) للمتكلم – المخاطب .

٣- النحو الوظيفى نظرية للتركيب والدلالة .

٤- يجب أن يسعى الوصف اللغوى الطامح إلى الكفاية إلى تحقيق أنواع ثلاثة من الكفاية :

أ- " الكفاية النفسية " (psy chological adequacy) .

ب- " الكفاية التداولية " (pragmatic adequacy) .

ج – " الكفاية النمطية " (typological adequacy) .

يفهم من المبدأ (ا) أن النحو الوظيفى يسعى إلى أن يكوّن نظرية لسانية تصف اللغات الطبيعية من وجهة نظر وظيفية أى من الوجهة النظرية التى تعد الخصائص البنيوية للغات محددة (جزئياً على الأقل) بمختلف الأهداف التواصلية التى تُستعمل اللغات لتحقيقها .

ويُفهم من المبدأ (٢) أنَّ الثنائية المعروفة " قدرة / إنجاز " يجب إعادة تعريفها ، فقدرة المتكلم وفقاً لمنظور النحو الوظيفى " قدرة تواصلية " بمعنى أنها معرفة القواعد التركيبية والدلالية والصوتية التى تُمكّنُ من الإنجاز فى مستويات مقامية معينة بقصد تحقيق أهداف تواصلية محددة ، هكذا يقترح النحو الوظيفى بنية للنحو بالإضافة إلى المستويين التمثيليين المخصصين للوظائف الدلالية والوظائف التركيبية ، فبنية النحو كما تقترحها نظرية النحو الوظيفى تشتمل على مستويات تمثيلية :

- مستوى لتمثيل الوظائف الدلالية (كوظيفة المنفذ ووظيفة المتقبل ووظيفة المستقبل ووظيفة المستفيد ...) .
- ومستوى لتمثيل الوظائف التركيبية (كوظيفتى الفاعل والمفعول) .

وفى إطار السعى إلى تحقيق الكفاية النفسية يحاول النحو الوظيفى أن يكون ، قدر الإمكان ، مطابقاً " للنماذج النفسية " (psychological models) ، سواء منها " نماذج الإنتاج " أم " نماذج الفهم " .

بناء على هذا المطمح يُلغى النحو الوظيفى من نموذج النحو القواعد التى شُكِّك فى " واقعيتها النفسية " كالقواعد التحويلية على سبيل المثال . وبهذا يتفق النحو الوظيفى بالنسبة لأولوية الوظائف و " النحو العلاقى " (Relational grammar) كما يتفق و " النحو المعجمى الوظيفى " (Lexical-functional grammar) .

كما تُعد الوظائف الدلالية والوظائف التركيبية وفقاً للنحو الوظيفى مفاهيم أولى (primitives) بمعنى أنها ليست مفاهيم مشتقة من بنيات مركبية معينة .

هكذا يمكننا رد المبادئ الوظيفية للدراسة الألسنية بالنسبة إلى "مارتينيه" إلى القضايا التالية :

١- الصلات القائمة بين العناصر اللغوية .

٢- موقع العناصر اللغوية .

٣- المحتوى الدلالى للعناصر اللغوية .

أما " تروبتسكوى " صاحب كتاب " مبادئ الفونولوجيا " المنشور فى "براج" وتـرجمه إلى الفرنسية " كانتينو " فتتدرج أفكاره فى إطار المفهوم الوظيفى ؛ إذ يـنظر إلى اللغة من حيث هى تنظيم وظيفى أى تنظيم قائم على الوسائل التعبيرية المستعملة بهدف إقرار غاية معيّنة .

ويتوسل اكتشاف هذا التنظيم ، لذا تشمل دراسته مجمل المستويات اللغوية : الفونولوجية والصرفية والمعجمية .

والمبادئ الأساسية التى يعتمدها " تروبتسكوى " فى مجال الدراسة الألسنية:

١- الفونتيكا والفونولوجيا .

٢- الوظيفة التمييزية .

٣- التحقق من الفو نامات .

٤- تحديد الفونام .

وقـد اتبعت هذه المدرسة فى عملها المنهج السنكرونى ، وتتم دراسة لسانٍ ما عادةً وفق مفهومى التزامنية والتعاقبية . التزامنية تُعنى بدراسة هذا اللسان فى حركيّته ووظائفيته ، ضمن مرحلة زمنية معيّنة ، وفى حيّز جغرافى محدّد .

ولكـن الدراسة التزامنية للسان معين ، لا تعنى البتّة تصوراً سكونياً مطلقاً كما كان الاعتقاد الشائع عند البنيويين فى الستينات والسبعينات . فثمة ظواهر فى التزامنية تنشط باستمرار ، وعندما ننطق ، على سبيل المثال ، بكلمةٍ من لساننا ، كمـا يقول أندريه مارتينيه ، فنحن نغيّر فى هذا اللسان ، ذلك أننا نغيّر تواتر هذه

الكلمة ؛ الأمر الذى يؤدى من ثم إلى تغيّر فى اللسان . من هنا ، فإن تواتر الكلمة محدّد لتطور هذا اللسان .

وفـــى الســـياق نفســـه ، يـــتطور لسان ما ، وفق مفهوم المدرسة الألسنية الوظيفـــية ؛ لأنـــه يتداول ، لذا ينبغى أن يخدم باعتباره وسيلة تواصل بين جماعة لغويـــة واحدة ، وعليه أن يتلاءم فى كلّ لحظةٍ مع متطلبات هذه الجماعة بالذات ، ومـــن ثم أن يتطور . فثمة دينامية لوقائع اللغة الإنسانية تجعل منها كائناً متحركاً قـــابلاً للـــتطور ، شـــأنها شـــأن البنى الاجتماعية الأخرى ، وبسبب ارتباط اللغة الإنسانية بنية اجتماعية ، بسائر البنى ، فقد أصبح لزاماً عليها أن تتطوّر كيما تسدّ احتياجات الناطقين بها ، وإذا تغيّرت هذه الاحتياجات فلن تألو هذه المؤسسة جهداً كى تتلاءم بغية الاستمرار فى توفيرها .

ولـــم تخـــرج مدرســـة " كوبنهاجـــن " عن الخطوط العريضة لمبادئ هذه المدرسة ، ويمثل هذه المدرسة العالم الدنمركى " هيلمسلف " .

الوظـــيفة الأساسية للغوى عند هيلمسلف هى أن يضع نظاماً تجريدياً لفهم اللغـــة ، وإنمـــا يتم له ذلك بالنظر إلى اللغة على أنها " عملية رمزية " تدخل فى إطار علم الرموز (أى دراسة النظم الرمزية فى عمومها) .

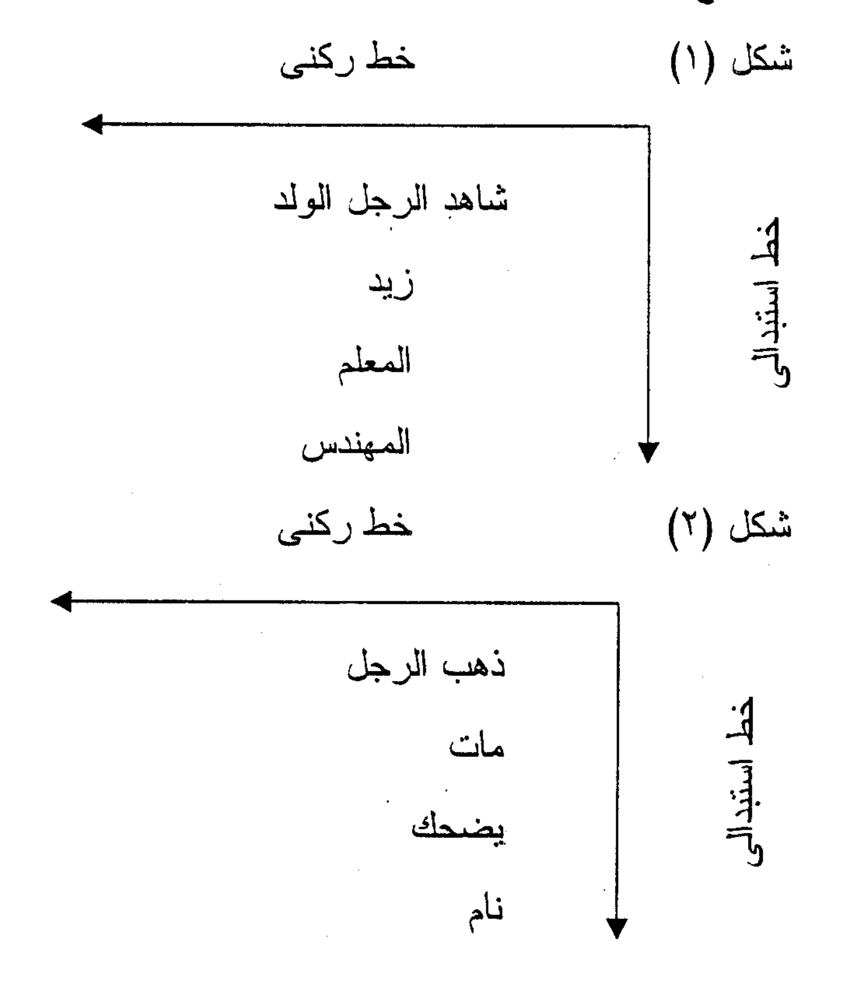
وهو فى هذا المجال يفرق بين المحتوى content والتعبير expression ، ففى نظام علامات المرور مثلاً يعد اللون الأحمر تعبيراً ، محتواه هو الوقوف ، وهـــذه العلاقة علاقة متبادلة ، فكما أن اللون الأحمر يدل على الوقوف فكذلك يدل اللـــون الأخضـــر على استمرارية المرور ، فإذا استقر لنا هذا التصور للعلاقات الرمـــزية ، كـــان علـــى اللغوى أن يبحث دائماً وأبداً عن العلاقات فى النص أو النظام اللغوى .

والعلاقـــات فـــى الـــنظام اللغوى علاقات رأسية (كالعلاقات بين مفردات الجدول الصرفى) أى براديجماتيكية ، أما العلاقات فى النص فهى علاقات أفقية أى سيجمانتيكية .

وقد أورد فيرث هذين المصطلحين ، ورأى أنهما يمثلان الأساس الفكرى لهذا التحليل . يرى فيرث أن للغة محورين : محور النظام system ويمثله العلاقات الرأسية paradigmatic relations ، أى ثوابت اللغة ، مثل مبانى التقسيم فى النظام الصرفى ، ومحور البناء structure ويمثله العلاقات الأفقية syntagmatic relations التى تتميز بالتجدد ، مثل الجمل المختلفة فى اللغة . ومن النظام اللغوى يستمد البناء القيم المختلفة اللازمة لعمل العناصر ، فالأبنية اللغوية فى شكلها الصحيح – هى انعكاس للنظام بما فيه من قواعد مؤسسة ، ولا يمكن أن نفهم عنصراً بمنأى عن العنصر الآخر ، فالجانبان مرتبطان ببعضهما أشد ارتباط .

وترمز الدراسة الألسنية إلى مبدأ التوافق بالخط الأفقى وتسميه " الخط الركنى " وترمز إلى مبدأ الاستبدال بالخط العمودى وتسميه " الخط الاستبدالى " .

نستطيع أن نمثّل ذلك ، بواسطة الشكلين التاليين :



يبين الشكل الأول أن العناصر اللغوية : " شاهد و " أل " و " رجل " و " أل " و " ولد " تتوافق ، على الخط الركنى ، لتؤلف الجملة " شاهد الرجل الولد " كما يظهـــر أن العناصـــر " زيـــد " و " المعلـــم " و " المهندس " تستبدل ، على خط الاستبدال ، فى موقع " الرجل " وتنتمى ، من ثم ، إلى الفئة نفسها التى تتدرج فيها كلمة " الرجل " أى إلى فئة الاسم .

يوضـــح الشكل الثانى ، على النحو ذاته ، أن العناصر اللغوية " ذهب " و "أل" و " رجـــل " تتوافق ، على الخط الركنى ، لتؤلف الجملة " ذهب الرجل " كما يوضح أن العناصر " ذهب " و " مات " و " يضحك " و " نام " تستبدل ، على خط الاستبدال ، فى موقع " ذهب " وتنتمى إلى الفئة نفسها التى تندرج فيها كلمة "ذهب" أى إلى فئة الفعل .

تجدر بنا الإشارة إلى أنّ هذا التحليل اللغوى لا يقتصر فقط على الوحدات اللغوية ، إنما يتناول أيضاً التراكيب المؤلفة من أكثر من عنصر لغوى واحد ، كما يشير إليه الشكل التالى :

شكل (٣)

شاهد الرجل الولد

ابن الرجل

الرجل الذى تحبه ليلى

هذا الرجل

الرجال كلهم

تعود التراكيب المستبدلة فى الشكل (٣) كلها إلى الركن الاسمى ، ذلك أنه يمكـــن اســـتبدالها فى موقع الاسم ، وهذه التراكيب تتوافق ، على الخط الركنى ، لتؤلف الجمل التالية :

- شاهد الرجل الولد .
- شاهد ابن الرجل الولد .

- شاهد الرجل الذى تحبه ليلى الولد .
- شاهد هذا الرجل الولد .
- شاهد الرجال كلهم الولد .

ويشمل السياق اللغوى كل العلاقات ، وهى كل العلاقات التى تتخذها الكلمة فى داخل الجملة . وهذه العلاقات الأفقية على عكس العلاقات الجدولية وهى العلاقات الاستبدالية التى تتخذها الكلمة مع كلمات أخرى يمكن أن تحل محلها ، وإيضاح هذا بالأمثلة على النحو التالي :

أمثلة العلاقة الأفقية : قام بواجبه ، شجرة باسقة ، كتاب قيم ، علم الدلالة.

أمثلة العلاقات الجدولية : جلس الطالب على الكرسى ، جلس الأستاذ على الكرسى ، جلس المدير على الكرسى .

وعلى هذا فالعلاقة بين (قام) و (واجب) أفقية ، وكذلك بين (شجرة) و (باسقة) ، وبين (كتاب) و (قيم) ، وكذلك بين (علم) و (الدلالة) .

أما العلاقة الجدولية فنجدها بين الكلمات التى يصلح استعمالها فى الموقع نفسه فى الجملة والوحدة ، وهى كلمات : الطالب والأستاذ والمدير ، ولكن (هيلمسلف) يأخذ الوظيفة فى الحسبان ، ويعنى بها الدور الذى يؤديه العنصر اللغوى (وحدة صوتية – وحدة صرفية – كلمة – تركيب إلخ) فى البنية النحوية للتعبير ، فكل عضو أو عنصر فى الجملة له قيمة فى تشكيل المعنى العام للجملة .

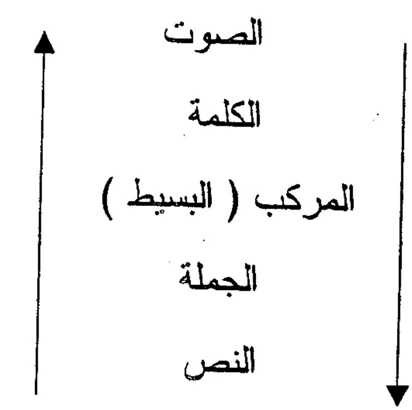
ومع ذلك ينبغى ألا نركز على وصف هذه العناصر ، وإنما يكون التركيز على العلائق التى تربطها بعضها ببعض ، ولا يفرق (هيلمسلف) بين العلائق الأفقية والرأسية فى الأهمية ، فإن العناصر اللغوية لا قيمة لها دون النظر إلى الجانبين معاً بصورة متساوية ، وهنا نرى وجه خلاف بينه وبين مدرسة براج التى تعطى أسبقية للعلاقات الرأسية والمدرسة الأمريكية البنيوية (فى جملتها) التى تولى اهتماماً بالعلاقات الأفقية ، أما العلاقات الرأسية فهى ضمنية ويحددها التحليل النهائى .

واللغـــات عـــند (هيلمسلف) مهما كان الاختلاف بينها تشترك فى بعض الـــنقاط ، وعلينا أن نحاول البحث عن هذه العناصر والنقاط ، وهو بهذا يأتى فى الطريق الوسط بين البنيويين (المهتمين باللغة المعينة ، كما فى أوربا أو الكلام ، كما فى أمريكا) والتوليد بين المشغولين بالطاقة أو الكفاية اللغوية عند الإنسان[٢٢].

إذن فالصـــفة الممـــيزة لمدرسة براج اللغوية هى أنها نظرت إلى اللغة فى جانبها الوظيفى . أعنى بهذا أن أعضاء مدرسة براج فحسب فكروا أو نظروا إلى اللغـــة على أنها تعمل ككل من أجل خدمة الهدف ، وهى الحقيقة التى تميزهم عن غيرهم ، ولكن لأنهم حللوا لغة معينة بصورة تبين الوظائف الخاصة التى تقوم بها المكونـــات البنـــيوية عـــند اســـتعمال اللغة الكلية ، هذا ما ميز مدرسة براج عن المدارس الأخرى المعاصرة .

ومـــن يقـــم وصـــفه على نوع التراكيب المنتجة ، فإنه يخطو ببساطة من البســـيط إلـــى المعقد ؛ من الصوت إلى الكلمة ، ومن الكلمة إلى المركب ، ومن المركب البسيط إلى الجملة ومن الجملة إلى النص .

وهكذا تتحقق المستويات فى هذا الضرب على النحو التالى :



ويلاحظ هنا الربط الواضح بين عملية إنتاج اللغة وتحليل مكونات أو أجزاء القواعد النحوية أو بصورة أخرى بين عملية عقلية وأخرى أدائية .

على أنه يجب تلازم الضربين فى الوجود ، بحيث يساند كل منهما الآخر ، ويـــرجع الفصل إلى علة إجرائية هى الوصف أساساً ، ومن هنا ننتقل إلى الفكرة المتعلقة بصياغات التحليل أو ما أطلق عليه تشكيل النحو ، فاللغات الطبيعية تقوم

بوظيفة مزدوجة ؛ الأول بوصفها لغة مدروسة والثانية بوصفها لغة وصف أو لغة واصفة .

وتحديـــد الوحدات التركيبية فى اللغة يختلف وفق نوع التحليل المستعمل ؛ فبيـــنما يركـــز أحد أنماط التحليل اللغوى على الوحدات الصغرى التى تتمثل فى الكلمات ، يركز النمط الآخر من التحليل اللغوى ، بالإضافة إلى رصده للوحدات الصـــغرى ، علـــى جمـــيع الوحدات التركيبية الأخرى كالوحدات التى تكون بين الجملة وبين الوحدات الصغرى .

وتتمثل هذه الوحدات التركيبية التى تسمى بمكونات الجملة (٢٣) وبالوحدات الـــنحوية ، فـــى " أى كـــيان يعالجـــه البحـــث اللغـــوى " (٢٤) من كلمات وجمل ومورفيمات ومركبات وعبارات " (٢٥) ، ويعنى ذلك أنها تختلف فيما بينها حجماً ، من حيث قبول بعضها للاندراج تحت بعض (٢٦) ، كما يعنى ذلك اقتصارها على الوحدات الدلالية دون الوحدات الصوتية التى لا تحمل دلالة (٢٧) .

ولاشـــك أن ثمـــة روابط بين المعنى والوظيفة وبين المعنى الدلالة للمفرد والمعـــنى الكلى للجملة وبين المعانى النحوية وبين التراكيب وبين المعانى الحقيقية والمعـــانى المجازيـــة ... إلى آخره . ومن ثم ليس للفصل بين هذه الثنائيات أدنى قـــيمة مـــن جهة التحليل الوظيفى للبنية النحوية ، فلقد تطورت الدراسات اللسانية للظاهـــرة الكلامية فى أبواب الأصوات والصياغة الصرفية وازداد الاهتمام حالياً بالجملـــة فى الدراسات التركيبية فى الكثير من اللغات ، وكانت الجملة تدرس فى أبـــواب الإعـــراب متـــناثرة فى الكتب إلى أن خُصّص لها قسم قائم بها ، والذى يســـترعى الـــنظر أنها لم تدرس انطلاقاً من نصوص ترجع إلى النمط الأدبى من الكلام فى العصر الحديث إلا قليلاً .

ويســـتند الوصف النحوى إلى اختيار مجموعة من المعطيات اللغوية التى تمثّل خصائص عامة فى أكثر اللغات المعروفة وفى اللغة المخصوصة التى ينطلق منها الدارس ، فهو فى بحثه عن الإحكام النحوى والتناسق بين العلامات التركيبية

، يلاحــظ الأمثلة فيجمعها ويصنّفها ويستخرج وظائفها ، وهو الذى يسعى إلى أن يكون انتظام الأبنية فى وحدة متماسكة محور التحليل والنظر .

فالجملـــة فـــى اللغـــة كلّ واحد ومبدأ التصنيف ، وعمل النحوى أن يبيّن الملفوظـــات والأصـــناف التركيبية فى مستوى المنطوق أو المكتوب ويجمعها فى أضرب متجانسة تتولد عنها الأنماط التى تماثل التصنيف النحوى الذى يتوخاه .

ومن الأفكار التى تتردد فى البحوث النصية فكرة تقسيم الجملة على أساس معـــيار وظيفى ، التى تعود إلى مدرسة براج ؛ إذ يبنى التحليل على الشكل أساساً وإن كان يربط بالوظيفة . وتذهب إلى وجوب التمييز بين وظيفتين إخباريتين لهما أهمية دلالية ، هاتان الوظيفتان تتمثلان فى ذلك التتابع لمعلومة معروفة تخبر عنها يطلـــق علـــيها الموضـــوع ، ومعلومة جديدة تخبر عن الموضوع ، يطلق عليها المحمـــول . ويـــرى سوينســـكى أن مدرسة براج قد أسهمت من خلال عناصر المعايير الوظيفية للجملة فى بناء منهج تحليل سياقى (٢٨) .

وقـــد نُقل هذا التصور من مستوى تتابع الجملة إلى مستوى تتابع النص ، واحتضـــنه التوليديون ، وتوسعوا فى توظيفه ، ويحاول (Hochett, ch.) أن يربط بينهما وبين السياق والنص ، فأعاد صياغة فكرة الجملة الوظيفية من خلال مصطلحى (Topic) ويعنى – لديه – المعلومة التى عرفت من السياق ، سواء عـــدت موضـــوعاً أو محمـــولاً ، و (comment) ويعنى المعلومة الجديدة فى النص بغض النظر عن التمييز السابق .

أظهـــرت الدراســـات الوظيفـــية للمعنى اللغوى أنّ الأحداث اللغوية معقّدة مركّبة ، ليس من السهل دراستها وتحليلها دفعة واحدة ، بل يجب تشقيقها والنظر إلـــيها علـــى مـــراحل ، وفى هذا الصدد دعا فيرث (Firth) إلى تحليل المعنى اللغـــوى إلـــى عناصـــره الرئيســـة من جهة ، ووجوب الاعتماد على " المقام " (context of situation) لكشف ظروف الكلام وملابساته من جهة أخرى(٢٩) .

وفى إطار البحث الدلالى تعد العلاقات الأفقية بكل أنواعها موضوعاً للسياق اللغوى ، ويدخل فى هذا بالضرورة ظواهر مختلفة منها التضام والتراكيب الثابتة والعبارات الجاهزة ، ويتناول كل ما يربط كلمتين أو أكثر فى سياق لغوى مثل :

- اسم + حرف جر الحق له ، الحق عليه ، باقة من الورود ، مجموعة من
- فعل + حرف جر رغب فى ، رغب عن .
- مضاف + مضاف إليه رئيس الجامعة ، طالب الجامعة .
- صفة + موصوف فكرة جديدة ، فكرة قديمة . فتاة طويلة ، شجرة باسقة
- فعل + مفعول به أصدر مرسوماً ، أعلن خبراً .

وهكــذا تعـد كل علاقات السياق ضرورية فى العمل المعجمى . ودراسة استعمال الكلمة أو العبارة أو التركيب فى الموقف الاجتماعى أمر متعدد الجوانب ، ولابد من أن تضع الدراسة العناصر المختلفة المحدِّدة لطبيعة هذا الموقف ، وفى مقدمتها :

أ- الزمـن (وقت العمل ، وقت الراحة الأسبوعية ، وقت العطلة الصيفية ... إلخ) .

ب- المكان (مكان عمل ، منزل ، نادى ، مدرسة ، قطار ... إلخ) .

ج- مكانة المتحدث (الوظيفة ، الثروة ، العمر ... إلخ) .

د - مكانة المخاطب (الوظيفة ، الثروة ، العمر ... إلخ) .

هـ - العلاقة بينهما (رسمية ، قرابة ، صداقة ، عدم معرفة) .

و - الأفعال غير اللغوية المصاحبة للحدث (حركات اليد ، قسمات الوجه ...) .

ز- الموضوع (موضوع عمل ، موضوع شخصى ،موضوع سياسى ...).

ح- العناصر المادية المحيطة بالموقف (المنظر الطبيعى ، المنزل) .

ط- المعرفة السابقة بما دار (الموضوع جديد ، استكمال موضوع قديم...).

ويـــبدو أن ذلـــك التصور قد لقى استحساناً من قبل بعض علماء النص ، فأعادوا عرضه بشكلٍ موسع ، ويحاول (درسلر) أن يحدد قيمته ، حين يرى أن الأمـــر يتعلق – هنا – باستعمال جملة ما فى سياق لغوى وسياق غير لغوى ، من خـــلال اعتبار خاص لتوزيع معلومات قديمة ومعلومات جديدة فى الجملة ؛ إذ إن المعلومات القديمة(المحور) تقدم فى الأغلب من خلال جمل سالفة للنص ذاته(٣٠) .

وعلـــى الـــرغم مـــن غموض العبارة إلا أنه يشير إلى فكرة جوهرية فى التحلـــيل النصـــى وهـــى ارتـــباط جمل نص ما بعضها ببعض من خلال ارتباط موضـــوعاتها ، ويراد من ذلك تحقيق وصف مضمونى للنص ، ولم يخرج كوخ (Kock,w) عـــن إطـــار هذا التصور حين دعا إلى تجزئة محددة من الناحية اللغويـــة ، ومبنـــية بناء متدرجاً ، وقد أطلق على هذه العناصر مصطلح الوحدات النصـــية (Texte me) ومـــن بيـــنها (Topic) لما قد عرف من السياق ، و (comment) للمعلومة الجديدة وفسرهما بعد ذلك تفسيراً دقيقاً (٣١) .

غـــير أن تجـــزئة النص قد ارتكزت على معايير أخرى تجاوزت الوصف الشكلى وقدَّمت تصوراً أكثر شمولاً وتماسكاً فى بعض الاتجاهات . ويشهد البحث اللغوى فى أمريكا على مستوى النحو ، ذروة نشاط لمنهجٍ فى التحليل " وظيفىّ " .

ويَجْهَـــد هـــذا المنهج أن يكشف عن أنّ منهج (التحويل) يتخلّف إذا نحن مضينا فى استقصاء أمثلة الظاهرة النحوية وامتحنا قدرته على تفسيرها ، إلى أبعد ممّـــا مضى ، وخاصة إذا نحن تجاوزنا حدود المادّة اللغوية مَوضِع النظر إلى ما يكتنفها من ملابسات خارجيّة ، فى موقف المتكلم ، وحال المخاطب ، والمتغيرات الخارجـــية الـــتى يجرى فيها المقال . وكذلك إذا جعلنا احتكامنا إلى " الدور الذى تؤديه العناصر اللغوية فى عملية التبليغ " (٣٢) . حيث إن النحو الوظيفى ، نحو لا يحتوى على قواعد تحويلية ؛ إذ لا يرى هناك سبباً مقنعاً لكى نعتبر أن هناك بنية عميقة فى اللغة ، فليس هناك ما يسمى بالاستتار اللغوى ، وذلك لأننا عندما نتكلم لغـــة ونمارسها فإننا نفعل ذلك دون بنية عميقة أو مستترة ، بل إننا نمارسها بنية سطحية . فأندريه مارتينيه لا يؤمن بمفهوم البنية العميقة (Deep Structure)

بـــل يـــنظر إلـــى اللغـــة مـــن خـــلال البنية السطحية (أى من حيث ظاهرها) . (Surface Structure)

فـــالخلاف الحقـــيقى بيـــن ما يبحثه أندريه مارتينيه وما يبحثه علماء النحو التوليدى لا يتعلق بالبنية العميقة والبنية السطحية للغة ، بل يتعلق الخلاف بالهدف مـــن البحـــث اللسانى . فالاختلاف الرئيسى بين ما يقوم به أندريه مارتينيه ، وما يقوم به علماء النحو التوليدي هو أن مارتينيه غير مهتم بنظام الضوابط .

ويتتـــبع ذلك أنه ليس هناك طريقة ما للمقارنة بين ما يقوله ، وما يقول به صـــاحب الـــنحو التوليدى ، إنهما فى حقلين مختلفين تماماً ، فعالم النحو التوليدى مهـــتم بشـــرح المعرفة اللغوية التى يملكها المتكلم والمخاطب ولا يكتفى بالتعليق البســـيط على بعض التركيبات اللغوية فى حد ذاتها ، وعلى هذا فأصحاب الاتجاه الوظيفى يبحثون فى حقل لسانى آخر غير الذى يبحث فيه التوليديون .

[٦] استعمال اللغة في المنظور الوظيفي :

تهدف الألسنية الوظيفية إلى الدراسة العلمية للغات البشرية كافة من خلال الألسنة الخاصة بكل قومٍ من الأقوام .

وهـــذه الدراســـة تشمل ما يلى : الأصوات اللغوية – التراكيب النحوية – الـــدلالات والمعـــانى اللغوية – علاقة اللغات البشرية بالعالم الفيزيائى الذى يحيط بالإنسان .

توجد ضمن الألسنية الوظيفية مدارس متعددة ، تختلف فى تناولها للمظاهر المدروســـة مـــن حيث عمق التحليل ، ومن حيث التركيز على التفاصيل المتعلقة بالظاهـــرة ، وعلـــى الرغم من التباعد الزمانى والثقافى بين هذه المدارس إلا أنه يجمعهـــا تصور واحد تجاه طبيعة اللغة : فاللغة وسيلة اتصال اجتماعية يستعملها الفرد لأداء وظائف مختلفة للتأثير على الآخرين .

يتضمن تعريف مارتينيه اللغة المسائل التالية :

١– اللغة وسيلة التواصل .

٢- اللغة تحتوى على مستويين : مستوى التراكيب ومستوى الأصوات .

٣- الكلمات تتكون من وحدات صوتية منفصلة .

٤- الأصوات اللغوية عددها محدود .

٥- تختلف اللغات من مجتمعٍ إلى آخر .

ومعظم صور البحث اللغوىّ الحديث منذ مدرسة براج يُمكن أن تُسلَك فى المنحى الوظيفى من جهة أنّها تنظر إلى العلاقات بين الكلم ضمن دائرة أوسع من دائرة الكلم نفسها تستوعب السياق الذى هى جزء منه (٣٣) .

ذلك أنّ مدرسة براج تتميز بإلحاحها على دراسة " وظائف اللغة " وهذا الإلحاح على الوظيفة يتخذ وجهين : النظر فى وظيفة اللغة فى عمليّة الاتصال ودور اللغة فى المجتمع ، والنظر فى وظيفة اللغة فى الأدب ومسألة وجوه اللغة ومستوياتها من منطلق وظيفىّ .

ويلحّ هذا المفهوم على أهمية " السياق " أو " الموقف " أو " المقام " عند النظر إلى موضوع الدراسة . ويصبح من مطالب هذا المنهج لفهم وظيفة اللغة ، من حيث هى آلة – أن ننظر إليها فى إطار عوامل رئيسة ثلاثة ينتظمها الموقف الكلامى ، وهى : المتكلّم ، والمستمع ، والأشياء (أى عناصر الموقف المُحسَّة وأوضاعها ، التى هى موضع الكلام) .

ويقوم الرمز اللغوىّ على التواؤم وهذه العوامل الثلاثة ، فهو يتواءم والمتكلم ، ويتواءم والمستمع ، ويتواءم وعناصر الموقف وأوضاع الحقيقة الخارجية .

ويقصد بالتواؤم هنا أنّه إذا اختلف المتكلم اختلف الرمز اللغوى وفقاً لذلك ، وإذا اختلف المستمع اختلف الرمز أيضاً ، وإذا اختلفت عناصر الموقف وأحواله اختلف الرمز وفقاً لها ، وهذه الأضرب مع التواؤم هى الوظائف الرئيسة للغة(٣٤).

وفى هذا إدراك عميق بالوظيفة الأساسية للغة أعنى وظيفة الاتصال ، وقد عبر اللغويون عن هذا التجاذب بين هذه العناصر المؤلّفة للحدث الكلامى من

خـــلال مصطلحات عدة ، منها ما استعمله كارل بولر أعنى مصطلح " التوائم " ، فإنـــه لفهـــم وظـــيفة اللغة من حيث هى آلة يجب أن ينظر إليها فى إطار عوامل رئيســـة ثلاثـــة ينتظمها الموقف الكلامى ، وهى : المتكلم ، والمستمع ، والأشياء (أى عناصر الموقف المحسة وأوضاعها) التى هى موضع الكلام.[٣٥] .

واللغـــات الإنســـانية وإن تنوعـــت إلى حدّ كبير تبقى فى جوهرها الوسيلة المتيسِّـــرة للإنسان لتحقيق عملية التواصل فى المجتمع ، فكل اللغات البشرية تسند عناصرها إلى خصائص العالم الطبيعى المحيط بالإنسان وإلى معانيه وأشيائه .

فهـــذا العـــالم يُدركه أساساً وبصورة كليّة وعلى المنوال نفسه ، كلّ إنسان ســـوى من الناحية الفسيولوجية والسيكولوجية ، أضف إلى ذلك أنَّ اللغات البشرية كلهـــا تقـــوم بأداء الوظائف نفسها فى عمليات التكلم ، فهى تسرد الأحداث وتثير الأسئلة وتأمر وتتعجّب وتنفى وتقرّ وتجزم ... كما أن كل اللغات تستعمل الأجهزة الفيزيولوجية والسيكولوجية الواحدة الموجودة لدى الإنسان .

أمـــا نمـــوذج كارل بولر فهو معروف فى اللسانيات الحديثة باسم (نموذج الأورجان عند بولر (Organon - Model) وهو يبحث العلاقات الجوهرية بين العلامات اللغوية داخل نموذج تبليغى بسيط .

وقد طور جاكوبسون نموذج بولر ، ومع اختلافهما فى المصطلحات ، فإن جاكوبســـون قد جعل للغة ست وظائف لا ثلاث فقط ، كما نلاحظ عند بولر ، من ناحية أخرى جعل جاكوبسون عناصر نموذجه أربعة ، هى : المرسل ، والمستقبل ، والسياق (وهو هنا ليس السياق بمعناه المألوف ، وإنما السياق بمعنى الموضوع الذى نتحدث عنه ، وهو ما يناظر الأشياء والموضوعات عند بولر) والخبر ، أى التبليغ ، ويدخل فى ذلك النص .

وقد أضاف جاكوبسون إلى ما سبق عنصر الوسط الذى يتم فيه التبليغ ، أى الوســـط الســـياقى الـــذى يجرى فيه بشكلٍ عام اتصال المرسل والمستقبل أحدهما بالآخر . ولا شك أن هذا الوسط الاحتكاكى أو الاتصالى له أهمية خاصة ، عندما لا يكـــون هـــناك مجـــال للـــتفاهم المباشر ، أى عندما يكون التفاهم بين المرسل

والمستقبل – في العملية التبليغية – تفاهماً غير مباشر ، كأن يكون من خلال نصوص مكتوبة ، أو عبر التليفون ، أو نحو ذلك .

ويشير جاكوبسون إلى النظام أى اللغة التى هى المفتاح الجامع بين المرسل والمستقبل على وظيفة واحدة ، هى فض مكنون الخبر ، أو ما يسميه جاكوبسون الشفرة Kode .

وقد ميز جاكوبسون بين ست وظائف تؤديها الرسالة اللغوية ترتبط كل منها بصورة وثيقة بعامل من عوامل التواصل .

١- الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية تظهر هذه الوظيفة فى الرسائل التى تتركز على المستقبِل وتشير بصورةٍ مباشرة إلى موقفه من مختلف القضايا التى يتكلم عنها .

٢- الوظيفة الندائية تظهر هذه الوظيفة فى الرسائل التى تتوجه إلى المستقبِل لإثارة انتباهه أو لطلب القيام بعمل معين منه .

٣- الوظيفة المرجعية تظهر هذه الوظيفة فى الرسائل ذات المحتوى الذى يتناول موضوعات وأحداثاً معينة تشكل هذه الوظيفة التبرير الأساسى لعملية التواصل ذلك أننا نتكلم بهدف الإشارة إلى محتوى معين نرغب فى إيصاله إلى الآخرين وتبادل الآراء معهم حوله .

٤- وظيفة إقامة الاتصال تظهر هذه الوظيفة فى الرسائل التى تراعى إقامة الاتصال وتأمين استمراره وتقوم هذه الوظيفة على تعابير تتيح للمستقبل إقامة الاتصال أو قطعه .

٥- وظيفة تعدّى اللغة تظهر هذه الوظيفة فى الرسائل التى تتركز على اللغة نفسها . فتتناول بالوصف اللغة ذاتها ، وتشمل هذه الوظيفة تسمية عناصر البنية اللغوية وتعريف المفردات .

٦- الوظيفة الشعرية تظهر هذه الوظيفة فى الرسائل التى تتركز على الرسالة نفسها عنصراً قائماً بذاته . ولا تنحصر هذه الوظيفة بالشعر فقط ، بل تتعدّاه لتشمل الرسائل الكلامية ككل .

نستطيع تمثيل هذه الوظائف التواصلية على النحو التالى :

مرجعية

انفعالية　　　شعرية　　　ندائية

إقامة اتصال

تعدّى اللغة

ويظهر هذا الشكل اقتران كل وظيفة من وظائف الرسالة اللغوية بأحد عوامل عملية التواصل الإنسانى (٣٦) .

بناء على ما سبق ، تحصل لدينا ست علاقات لا ثلاث ، هى التى تكوّن حدث الخطاب ، فيما يرى جاكوبسون ، إنها ست وظائف محددة تقوم كل وظيفة منها بمفردها وهنا تبدو الوظائف التى تحدث عنها بولر فى صورة أخرى : فالوظيفة الإخبارية أو التعبيرية عند بولر تضاهى الوظيفة الانفعالية عند جاكوبسون .

والوظيفة الندائية أو الاستدعائية عند بولر تضاهى الوظيفة التبليغية عند جاكوبسون . وما يسميه بولر بالوصف أو العرض هو الذى قدمه جاكوبسون باسم الوظيفة الإشارية . ويقدم جاكوبسون وظيفة أخرى لم يعرفها نموذج بولر ، ترتبط بالوسط التبليغى أو وسط الاحتكاك ، ويسميها بوظيفة قبول الاتصال ، وتقوم على فحص قناة الاتصال لتحديد مواصفات الاتصال التقنية والفيزيقية والاستعداد النفسى لحدوث الاتصال (٣٧) .

ويقدم جاكوبسون وظيفة أخرى ، تختص بالشفرة وحدها : هى الحديث بالشفرة ، ويسمى جاكوبسون هذه الوظيفة التسمية الشائعة فى المصطلح اللغوى ، وهى وظيفة ما وراء اللغة ، والوظيفة الأخيرة عنده هى الوظيفة الشعرية وهى وظيفة تختص بتشكيل الخبر وبلورته ، وفيما يلى نموذج جاكوبسون :

السياق

وظيفة إشارية

المرسل	الخبر	المستقبل
وظيفة انفعالية	وظيفة شعرية	وظيفة ندائية

الوسط التبليغى

وظيفة قبول التبليغ

الشفرة

وظيفة ما وراء اللغة (٣٨)

وتحدد هذه الوظيفة العلاقات بين الرسالة والمتلقى ؛ لأن لكل اتصال غايته فى الحصول على رد فعل من هذا المتلقى . وعلى هذا يجب دراسة اللغة فى تنوع وظائفهـــا . وقبل التعرُّض إلى الوظيفة الشعرية (أو الإنشائية) ، علينا أن نحدِّد موقعها بين بقية وظائف اللغة .

فاللغـــة هى وسيلة التوصل الإنسانية ويتحقق التواصل الإنسانى من خلال توافر العوامل الآتية :

١- إنسان مرسل .

٢- إنسان متلقى .

٣- إقامة الاتصال بين المرسل والمتلقى .

٤- لغة مشتركة يتكلمها المرسل والمتلقى معاً .

٥- رسالة لغوية .

٦- محتوى لغوى ترمز إليه الرسالة .

يقـــوم المرســـل بأداء رسالة يستقبلها المتلقى . ولابد من أن تتضمن لكى تكـــون فاعلة ، محتوى كلامياً تشير إليه ويعيه المتلقى فى الوقت ذاته ، وتقتضى أيضـــاً وجـــود نظـــام رموز أو لغة تكون مشتركة ، كلياً أو جزئياً على الأقل ،

بالنسبة إلى المرسل والمتلقى ، وتتطلب الرسالة أخيراً توافر قناة اتصال تحقق الاتصال وتبقيه قائماً يمكننا تمثيل هذه العوامل اللازمة لتحقيق عملية التواصل كما يأتى :

محتوى

مرسل الرسالة متلقى

اتصال

لغة

واضح أنّ الوظيفة الشعرية أو الإنشائية ليست محصورة فى الشعر ، فكل استعمال للغة يركز على الرسالة ، يتخذ وظيفة إنشائية ، فالوظيفة الإنشائية ليست الوظيفة الوحيدة للغة إلا إنها الوظيفة السائدة ، وليس فى وسعنا تحليل هذه الوظيفة دون العودة إلى قضايا اللغة العامة . ومن ناحية أخرى يقتضى تحليل اللغة أخذ هذه الوظيفة فى الاعتبار .

ولتحديد الوظيفة الإنشائية لجأ جاكوبسون إلى مفهومى الانتقاء والترابط الألسنيين . فالانتقاء يتم من خلال مفهوم التماثل والترابط يتم من خلال مفهوم التجاور . وقد اختزل براون ويول [٣٩] وظائف اللغة فى اثنتين :

١- وظيفة نقلية : أى أن إحدى الوظائف التى تخدمها اللغة هى نقل المعلومات أو تناقلها بين الأفراد والجماعات ، وهذا رأى ثلة من باحثى اللغة وفلاسفتها . ويذهب براون ويول إلى أن لا أحد يمارى فى ما تقوم به اللغة من نقل للأفكار والثقافات عموماً كما أن لا أحد يجادل فى أن اللغة تساهم بشكلٍ فعال ، بهذا النقل ، فى تطوير تلك الثقافات ، بل تعد اللغة خزاناً هائلاً لتجارب الأمم عبر مسيرتها التاريخية ، ولكنها فى الوقت نفسه يعدان اللغة الواقفة عند هذه الوظيفة " لغة نقلية أولية " ، بحيث يفترض فى هذه الحالة أن ما يشغل ذهن المتكلم (الكاتب) هو النقل الفعال للمعلومات " ، أى جعل ما يقوله (يكتبه) واضحاً ، بمعنى قابلاً لأن يفهمه الآخرون دون عناء كبير ودون التباس أيضاً .

٢- وظيفة تفاعلية : أى قيام شكل من أشكال التفاعل اللغوى بين فردين أو بين مجمـــوع أفراد عشيرة لغوية ، على أن هذه الوظيفة الثانية تكتسى صبغة خاصـــة باعتـــبار أنـــه لا يهدف من ورائها إلى نقل المعلومات وإنما إلى تأسيس العلاقات الاجتماعية وتعزيزها والحفاظ عليها .

إضافة إلى ذلك فهى تعبر عن هذه العلاقات الاجتماعية والآراء والمواقف الشخصية والتأثيرات المرغوب إحداثها فى العقيدة أو الرأى أو ما شابه ذلك . فمن الطبـــيعى إذن أن يهـــتم بهـــذه الوظيفة علماء الاجتماع وعلماء الاجتماع اللغوى ودارسو التخاطب وأضرابهم . على أن الباحثين لا ينفيان بقية الوظائف الأخرى ، ومـــن ذلـــك مثلاً رأيهما فى الوظيفة الحشوية التى يبدو من خلالها أن المتكلمين يستعملون اللغة من أجل ملء وقت الفراغ ، ولكن براون ويول يذهبان إلى عكس مـــا يوحى به هذا الاستعمال المظهرى ، وهو أن فيها تفاعلاً (وظيفة تفاعلية) . فلـــو افترضنا أن شخصين ينتظران الحافلة فى طقسٍ بارد ، يتبادلان الحديث عن أحـــوال الطقس والبرد القارس ، فإن هذا لا يعنى أن التخاطب بينهما يهدف فقط إلى ملء وقت فارغ فى انتظار قدوم الحافلة ، بل هو تعبير عن رغبة أحدهما أو كليهما فى بناء علاقة صداقة تخصيصاً وعلاقة اجتماعية تعميماً . ومن ثم فإن عدّ الوظـــيفة فى هذه الحالة حشوية أمر نسبى ، وهو غير صادق إلا من زاوية الذين يـــرون أن الوظـــيفة الأساسية للغة هى " نقل المعلومات " ومادام تخاطبهما دائراً حول شيء يعرفانه جميعاً فإن الوظيفة لا محالة وظيفة حشوية .

تحليل الجملة :

لاشـــك أن ظواهـــر السلوك اللغوى لدى أية جماعة لغوية إنما تتصف فى بعض مستوياتها الاتصالية على الأقل وفى بنية شفرتها بالوحدة والتجانس ؛ لأنها لـــو لـــم تكن كذلك لاستحال التواصل بين المتكلمين بها ، وأول الشروط لتحقيق التفاهم أن يكون المرسل والمستقبل كلاهما على علم بالشفرة المشتركة ، وبتحققها الفيزيقى من حيث رموزها ، وعلاماتها وقواعد تأليفها ومفاتيح حلها .

بيد أن التنوع فى تجليات الشفرة اللغوية الواحدة حقيقة تشهد بها الملاحظة ، ويصـــدقها العلم ، فالسلوك اللغوى يتباين تبايناً ظاهراً بين أبناء الجماعة اللغوية الواحدة ، حتى إن التجارب المختبرية لتقطع بأن الفرد الواحد لا يكرر كلمة واحدة عند أدائها بجميع خصائصها الأولى فى ظرفين مختلفين .

لقـــد ظل تقعيد اللغة وتحليل مستوياتها معتمداً على الشكل المكتوب ، بعدّه أساساً للقراءة والتكلم ، وبعدّه تخزيناً لناتج عمليات الإرسال والاستقبال ، أو القول والتلقى (٤٠) . وبالرغم من أن فيرث قد دعا اللغويين إلى دراسة المحادثة ، حيث إنهـــا المفتاح إلى فهم أفضل لماهية اللغة ووظيفتها ، فإن الدراسة الجادة للخطاب المـــنطوق Spoken Disqurse لم يسبق إليها اللغويون ، وإنما سبق إليها ونبه إلـــى أهميـــتها الاجتماعـــية علمـــاء الاجـــتماع والأنثروبولوجيا ، ويفسر كالثارد M.coulthard هـــذا الأمـــر بأن جميع علماء اللغة يتفقون على عملية الاتصال الإنســـانى human communication التى توصف فى حدود ثلاثة مستويات علـــى الأقل هى : المعنى والصيغة والمادة (أو الخطاب والنحو والفونولوجيا) ، ولكنهم – فى الوقت نفسه – يختلفون فى حدود علم اللغة (٤١) .

إن الفرق الجوهرى بين النحو التقليدى والنحو الوصفى التركيبى هو الفرق بين منهج العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية ؛ ولعل أهم خصائص النحو القديم أنه يحدد قواعد اللغة بناء على فهم " المعنى " أولاً ، ومعنى ذلك أن " القواعد " تتحدد وفقاً للدارس نفسه ، أى أن هذا النحو يتقدم على أساس " ذاتى " Subjective ، أما النحو الوصفى فيقيم تحليله التركيبى للغة على أساس ارتباط الظاهر بالظواهر الأخرى وليس على أساس ارتباطها بالدارس نفسه ، ومن ثم فإنه يتقدم على منهج موضوعى objective ، ويترتب على ذلك أن النحو الوصفى ركز اهتمامه على درس " الأشـــكال اللغويـــة " بعدّهـــا " أنماطاً " يسهل رصدها ووصفها من خلال قوانين العلاقات (٤٢) .

وفى إطار السعى إلى تحقيق الكفاية النفسية يحاول النحو الوظيفى أن يكون ، قــدر الإمكان ، مطابقاً " للنماذج النفسية " (Psychological models) سواء منها " نماذج الإنتاج " أم " نماذج الفهم " .

بناء على هذا المطمح يُلغى النحو الوظيفى من نموذج النحو القواعدى التى شُكِّك فى " واقعيتها النفسية " كالقواعد التحويلية على سبيل المثال .

ونشـــير هنا إلى أن النحو الوظيفى بالنسبة لأولويّة الوظائف يتفق و "النحو العلاقى " (Relational Grammar) كما يتفق و " النحو المعجمى الوظيفى" (Lexical- Functional grammar) ؛ إذ يقترح النحو الوظيفى صوغ بنية النحو على الشكل الآتى :

تُشتق الجملة عن طريق بناء بنيات ثلاث : البنية الحملية (predicative Structure) ، ثــم البنـــية الوظيفـــية (Functional Structure) ثم البنية المكونية (constituent Structure) .

ويـــتم بـــناء هـــذه البنيات الثلاث عن طريق تطبيق ثلاث مجموعات من القواعـــد : " الأســـاس " (Fund) و " قواعد إسناد الوظائف " (Functions assignement rules) و " قواعد التعبير " (Expression) على التوالى ، ويشـــمل " الأســـاس " مجموعتيـــن اثنتين من القواعد تُسهمان معاً فى بناء البنية الحملـــية : " المعجـــم " (Lexicon) وقواعـــد تكويـــن المحمـــولات والحدود (predicates and terms formation rules) .

ويستدل على تحكم الدلالة فى التركيب بوجود سلمية للأدوار الدلالية تمكن من الربط بين البنية التصورية والبنية النحوية الوظيفية ، ومعرفة مجموع مفردات لغة من اللغات ، أو معجمها ، تقتضى الإحاطة بعدد هائل من المعلومات عن هذه المفردات من بينها خصائصها الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية والتواصلية، فلقـــد يسّـــرت اكتشافات علم اللسان العام وعلم التركيب بالخصوص طرقاً عملية يـــتوخاها الواصـــف للـــتعرّف على خصائص اللغة المدروسة ، فاللغة مشروطة بالمنهاجـــية والمنهاجـــية مشـــروطة هـــى أيضاً باللغة نفسها ، والطرق المتوخاة

مترسخة فى نظريات النحو وإجراءات علم اللسان الحديث ومحور العمل الجملة فهى المبدأ الثابت والمنطلق والنهاية فى التحليل النحوى .

والجملة عبارة عن الملفوظ الأدنى الذى تدور حوله المكوّنات وتحدد معانيها الوظيفية ، فالجملة فى نظريات مارتينيه تناسق بين مركبات نحوية قائم على المسند وهى بنية ملفوظ مقيّد بمجموع الوظائف النحوية التى تتكون منها ، فالبنية مرهونة بالوظيفة فى كل سياق دلالى ، وتحلّل الجملة إلى مركبات مفيدة (وحدات دنيا دالة) بالنظر إلى اختيار المتكلم والسامع ، ويطلق مارتينيه على السمة الدالة اللفظة (المونيم) وهى " الوحدة الدنيا التى تناسب تبديلاً شكلياً فى بنية الملفوظ سواء أفضى ذلك التبديل أم لم يفض إلى استعمال مركب معين " (٤٣).

وعلم التركيب يهدف إلى التعرف على مختلف أصناف العلاقات بين المركبات النحوية فى نظام الجملة ، وليس علم التركيب إلا اكتشاف النظرية النحوية وقراءتها ووضع أحكام عامة لنحو ناجح وتقييم ما يفضى إليه من نتائج ، ويجب أن يكون الوصف شاملاً واضحاً دقيقاً مختصراً ، فالمقاصد الدلالية مقترنة بعدد من العلاقات التركيبية التى تحقّق الإبلاغ .

الخطاب :

كان اهتمام مدرسة براج منصباً بوجهٍ خاص على الكيفية التى تزود بها اللغة المتكلم بعددٍ من الأساليب والطرائق التعبيرية مناسبة لظروف اجتماعية مختلفة (٤٤) ، والجانب الانطباعى أو الشخصى أمر لا مفر منه فى التعامل مع لغة النص ، أو اللغة التى نستعملها وسيلة للاتصال ؛ لأنّ مجال التحليل فى هذه الحالة أوسع من مجال تحليل الجملة نحوياً . ومع ذلك فإن فرباس لم يترك الأمر للذوق وحده ، بل إنه زودنا بالجوانب النظرية الكفيلة بمساعدتنا فى تحديد العناصر التى تساهم فى تشكيل الجمل أثناء عملية الاتصال (٤٥) .

ويلاحظ أن اللغة فى هذا النموذج من نماذج النحو التركيبى – الوظيفى – هى نظام من العلاقات ، بناء داخلى متداخل متدرج ، بحيث لا يفهم جزء دون

علاقـــة بالأجـــزاء الأخرى ، فالنظام يجمع بين الوظيفة وهى كيفية هذه العناصر وطـــريقة الـــربط بينها وعملها والبناء أو التركيب ، وهو تنظيم لهذه العناصر من خـــلال بحث علاقة كل عنصر بغيره من جهة وبالمجموع الكلى للعناصر الأخرى من جهة أخرى (٤٦) .

ولا يعنى ذلك غياب الجانب الدلالى فى هذا الاتجاه كما يتصور لأول وهلة ، لأن المـــبادئ تخـــترق عـــند التطبيق ، ويلحظ الدارس أن ثمة تصورات دلالية متغلغلة داخل التحليل ، تؤثر على الجانب الشكلى المزعوم ظاهرياً .

وتتشـــكل من هذه الأقسام والعلاقات صور الجملة التى يطلق عليها أنماط بـــناء الجملة ، وتنقسم إلى أنماط أساسية مستقلة وأنماط تابعة غير مستقلة (٤٧) . فدراســـتنا أساســـها الجملة ومنطلقنا الجوهرى عملية الإسناد والعلاقات التركيبية الممكنة التى تكوّن نظاماً متناسقاً يستقيم فى النحو والدلالة وذلك مرجعه واقع اللغة والتجربة اللغوية ، فالجملة شبكة من العلاقات التلازمية وهى تقابل مصطلح "القيم" فـــى معـــناه عند دى سوسير ، وتعد الجملة ملفوظاً تام المعنى والمبنى يُنجز فى سياق لغوى ومقام تخاطب بين متكلم وسامع .

وعلى هذا فبحث اللغة لا يكتفى بالتعرف على ملامح البنية اللغوية ، ولابد أن يكتمل بالتعرف على الوظيفة فى إطار المجتمع ، ومن هنا يجب فى بحث اللغة تعرف مستوى الاستعمال لكل نظام لغوى .

ويســـتدعى تحـــيل الجملة ووصفها التعرف على ميدان إجرائها أو مجراها وهـــو النحو ، ولما كانت الجملة وحدة الكلام ، فالتراكيب تتحقق فى صورة جمل مختلفة من ذلك الكلام ، فمن الجمل " يتكوّن الكلام ويتشكل ومنها تنشأ اللغة " (٤٨) فالـــنحو موصـــول بالوصف اللغوى لمختلف الجمل المفيدة التى تتقيّد بعدد معين يســـتمد من النص الذى يمثل النظام اللغوى ، وليس النص إلاّ ضرباً من الكشف والقـــراءة المتواصـــلين للخصـــائص الـــتى توسم بها اللغة المدروسة ، وقد يبيّن الوصـــف للنص تناظراً أو تبياناً نسبياً مع النظام اللغوى بكل ما يحتوى عليه من

قوانين ومبادئ ووجوه ، فخصائص النص راجعة إلى نحو اللغة وما يبدو شاذاً من الظواهر متضمن فى النص وهو دليل راجع إلى اللغة نفسها .

فالدراســـة النحوية وصف آنى شكلى للجمل الذى يمثلها النص وتلك الجمل مشروطة بشرطين استقامة البنية المعنوية ، وإحكام البنية الدالة ، وتحدّد العلاقات التركيبيـــة الـــتى يوفرها النظام النحوى القيم الدلالية فى سياق إبلاغى بين متكلم وسامع ، والذى ينبغى أن يهجر كل أضرب الإلباس الإبلاغى الممكن حصوله فى المقام الدلالى .

والنحو النظامى Systemic grammar يعد من أكثر الاتجاهات النظرية تكـــاملاً عـــند مدرسة لندن ، وقد وضع أسسه النظرية مايكل هاليدى ، ثم توسع أتـــباعه ومريدوه فى التطبيقات والتفريعات ، وبنى نحوه على أساس تعدد وظائف اللغة multipe Function ، وهذا المبدأ ينعكس على النظام اللغوى ، فنجد أن كل تركيب أو بناء لغوى يؤدى وظيفة مختلفة ، وهذا يعنى أن مستعمل اللغة يجد أمامه من الوسائل التعبيرية ما تمكنه من التعبير عن أفكاره ومشاعره .

هـــذه الوسائل ليست فى الواقع سوى الاستعمالات الفعلية للنظام اللغوى ، ومـــن ثـــم فإنـــه من الصحيح أن نقول إن الوسائل التعبيرية المتاحة للمتكلم ، أو الاســـتعمالات الـــتى مـــن الممكـــن أن يلجـــأ إليها مستعمل اللغة تكون فى حدود الإمكانـــيات اللغويـــة الموجـــودة فـــى اللغـــة . هـــذه الإمكانيات هى عبارة عن خصوصيات كل لغة . وتركيز النحو النظامى على الجانب الوظيفى للغة ، يجعل المهمـــة الرئيسة التى ينبغى الاضطلاع بها منذ البداية هى تصنيف هذه الوظائف الرئيسة ضمن نظام نحوى يعكس بالدرجة الأولى تلك الاستعمالات .

ففـــى مـــنظور الطبـــيعة الأساسية للاتجاه الوظيفى إن خيوط المعنى كلها مـــتداخلة النسج فى تركيب الخطاب ، ولا نستطيع أن ننتقى كلمة مفردة أو عبارة ونقول : إن لهذه معنى تجريبياً فحسب ، إن لتلك معنى تبادلياً فقط ، ما كان علينا أن نقوم به فى تحليل نصنا هو أن نعود كل حين إلى الجملة كلها ، ونفحصها مرةً أخرى من وجهة نظر جديدة .

وهذه نقطة مهمة ينبغى الالتفات إليها ؛ لأن ثمة قدراً من سوء الفهم لمفهوم وظـائف اللغة ، فكثيراً ما يفترض أن لكل جملة وظيفة واحدة فحسب ، أو فذلك يقتضـى أن يكون من الممكن أن نشير إلى كل جزء منفصل من الجملة ونقول : هـذا الجـزء من الجملة له هذه الوظيفة ، وذلك الجزء له تلك الوظيفة ، والجزء الآخـر له وظيفة أخرى ، لكن الحياة على وجه العموم ليست كذلك ، ومن المؤكد أن اللغـة ليست كذلك ، فكل جملة فى أى نص متعددة الوظائف ، لكن ليس بتلك الطريقة التى تجعلك تشير إلى مكون معين أو قطعة معينة ، ثم تقول : هذه القطعة لـيس لهـا إلا هذه الوظيفة . والمعانى تنسج معاً فى نسيج كثيف بطريقة – لكى نفهمهـا – ينـبغى ألا ننظر إلى أجزائها المختلفة نظرة منفصلة ، بل الأحرى أن نـنظر إلى الشيء كله ، على نحوٍ متزامن ، من عدد من الزوايا المختلفة ، وكل جهة من جهات النظر تسهم فى التفسير الكلى .

ويعـد مفهـوم الـتلفظ المـزدوج أحد المبادئ الأساسية التى يبنى عليها "مارتينيه" آراءه الألسنية وتكوّن خاصة التلفظ المزدوج الميزة الأساسية التى تُميز اللغـة الإنسـانية من جميع التنظيمات الاتصالية ، فالتلفظ الأول يتم بين الوحدات اللغويـة التركيبـية ويتألف من المونامات أى من الوحدات اللغوية المتتالية التى تحتوى على شكل صوتى يقترن بدلالة معيّنة .

تدخـل هـذه الوحدات فى تراكيب متنوعة تتناسب وتنوُّع مجموع خبرات مـتكلم اللغـة وحاجاتـه ، أما التلفظ الثانى فيتم داخل الوحدات نفسها ويتألف من الفونامـات أو الوحـدات الصـوتية الـتى لا يتجاوز عددها العشرات والمؤلفة المونامات .

يشـير " مارتينـيه " إلى الاقتصار اللغوى الهائل الناجم عن إمكانية التلفظ المـزدوج ، فلو أن اللغة اعتمدت صوتاً لغوياً خاصاً بكل وحدة لغوية ذات دلالة معيّنة لوجب عليها احتواء آلاف الأصوات المتمايزة . وهذا يتخطى إمكانية النطق الإنسـانى ، والـتلفظ المـزدوج هو الذى يجعل من اللغة الوسيلة التواصلية التى بإمكانها نقل العدد الأكبر من المعلومات والمعانى بأقل جهد ممكن .

والإبـــداع اللغـــوى creativity عندئذ لا يكمن ، كما يرى التحويليون فى قـــدرة المتكلم على توليد أو صنع جمل جديدة ، وإنما يكمن فى قدرة المتكلم على صنع معانٍ جديدة ، وهذا يوضح الاختلاف الجذرى بين اتجاه تشومسكى العقلانى واتجاه هاليدى الوظيفى .

فعلى حين ينظر تشومسكى إلى اللغة على أنها شيء نعرفه ، ينظر هاليدى إلـــى اللغة على أنها شيء نفعله ، ويفسر هاليدى ظاهرة اكتساب الطفل للغة الأم بأنهـــا تـــنطوى علـــى تعلم لاستعمالات اللغة فى الظروف الاجتماعية المختلفة ، وللمعانى المرتبطة بهذه الاستعمالات ، والتراكيب والكلمات والأصوات عبارة عن الوسائل والأطر التى تتحقق عن طريقها احتمالات المعانى (٤٩) .

وهكذا تتوع مجالات استعمال اللغات ومستوياتها تنوعاً كبيراً ، وعلم اللغة وإن كـــان يهـــدف إلى بحث البنية اللغوية ، فإن الرؤية الوظيفة للغة تجعل بحث مجالات الاستعمال أمراً ضرورياً .

[٧] خاتمة ونتائج :

لكـــل مدرســـة أهمية وأثر بالغ فى الدرس اللغوى الحديث فى جميع أنحاء العـــالم ، ولكـــلٍ منها كذلك دور واضح فى التثقيف اللغوى العام والخاص وجذب طوائف من علماء العالم إلى الانضمام إلى حوزتها والسير على هديها .

هـــذا بالإضـــافة إلى أن لكل مدرسة من هذه المدارس منهجاً متميزاً ينحو نحواً بعيداً إلى حدٍ كبير من مناهج المدارس الأخرى . والفكرة الرئيسة فى قانون البحث العلمى هى أنه لا سابق دون لاحق ولا لاحق دون سابق .

ومـــا يلفـــت انتـــباه الباحث ، بالرغم من تنوع اللغات ، هو وجود بعض المظاهـــر المتشـــابهة بين لغات لا جامع بينها تاريخياً ، كما أنّ الدراسات اللغوية الـــتى أجريت على اللغات المتنوعة قد أظهرت أنَّ التماثل بين اللغات هو بصورة أساســـية ، فـــى المســـتوى العمقى ، فى حين أنَّ التباينات هى فى مستوى يقارب المستوى السطحى .

ولئن كان التماثل الشكلى والوظيفى الذى نلمحه فى اللغات يُشير من بعض نواحيه إلى وجود قواعد وضوابط كلية تجمع بين اللغات رغم تنوعها وتعددها .

ولـــيس بإمكان أى باحث أو اتجاه بعينه تعميم قواعد ما أو فكر مدرسة ما علـــى لغـــةٍ بعينها ؛ لأن استعمالات اللغة لا تفرض على الناطقين بينما يمكن أن يتأثر اللغويون بقواعد اتجاهات معينة لا أظن أن هناك نظرية وحيدة لحل المشكلة اللغوية ودراستها ، بل أظن أنه يجب أن يكون هناك العديد من النظريات اللسانية أو وجهات النظر اللغوية لحل المشكلة بشكلٍ عام .

قـــد نســـتطيع أن نطبق نظرية لسانية على أية لغة من زاوية معينة فقط ، وذلـــك لوجـــود بعـــض الصفات المشتركة بين جميع اللغات البشرية ، ولكننا لا نســـتطيع أن نطـــبق هذه النظرية على أية لغة من الوجهة الكلية الخالصة وبشكلٍ حرفى .

مـــن هـــنا يجب أن يكون هناك نظريات لسانية عديدة ؛ لأنها نتيجة واقعية لاخـــتلاف اللغـــات ، فـــإذا كان هناك نظرية لسانية هى نتيجة واقعية لعدة لغات متكلمة ضمن إطار جغرافى واحد ، ويمكن أيضاً أن نطبق هذه النظرية على تلك اللغات ، فإن ذلك لا يعنى أننا نستطيع أن نطبق هذه النظرية على جميع اللغات .

ومن ذلك نخلص إلى النتائج الآتية :

١- لجـــأت مدارس التحليل الألسنى إلى فصل عناصر التركيب فى مستويات وفقاً للوحدات الأصغر ، أى صوت فصرف فنحو ، بينما أدى تبنى الاتجاه الوظيفى إلى ضم هذه العناصر لتؤدى الوظائف المختلفة للتركيب ؛ ومن ثم اللغة إذ ليس لأحد هذه العناصر بمفرده تأدية الوظائف المختلفة للغة ، وإن كانت له القدرة على أن يكون مُميّزاً .

٢- لـــم يقصد لغويو مدرسة براج تقنين المظاهر الوظيفية للغة وحصرها فى قواعـــد شـــاملة ، إنما اهتموا بالكيفية التى تزوّد بها اللغة المتكلم بعددٍ من الأســـاليب والطـــرائق التعبيرية استجابةً للظروف الاجتماعية والمواقف المختلفة وبيان الفروق بين أحدها والآخر .

٣- لا يستطيع الباحث أن يطبق نظرية لسانية بعينها على جميع اللغات ، كما لا يمكن أن تخضع لغة بعينها لجميع النظريات اللسانية .

٤- لا يخضـــع أعضاء الاتجاه الوظيفى لمبادئ الاتجاه ومنهجه الرئيس ، بل يختلفون فيما بينهم على بعض مبادئ الاتجاه ومنهم أندريه مارتينيه .

٥- إن استعمال معيار الشكل والوظيفة فى تحليل النصوص يساعد على تحديد بنـــية الـــنص ووظائفه اللغوية والاجتماعية ، ثم تحديد العملية التواصلية بشكلٍ منسجم ومنضبط .

٦- الــتماثل الشكلى والوظيفى الذى نلمحه فى اللغات يُشير من بعض نواحيه إلى وجود قواعد وضوابط كلية تجمع بين اللغات رغم تنوّعها وتعددها .

٧- فـــى إطـــار النموذج الوظيفى تتضافر الوظائف المختلفة لتحدد خصائص مكونٍ ما فيمكن أن تُحدَد وظائفه الثلاثة على النحو التالى :

- الوظائف التركيبية (الفاعل والمفعول) .
- الوظائف التداولية (البؤرة ، المحور ، ...) .
- الوظائف الدلالية (المنفذ ، المستقبل ، المتقبل) .

٨- رأت المدرسة التحويلية أنه يجب علينا أن نقيم النظرية اللسانية من وجهة تجريدية بحتة .

٩- تــنظر المدرســة اللســانية الوظيفية للبنية العميقة والبنية السطحية نظرة مخالفة لما نادت به المدرسة التوليدية التحويلية .

١٠- تنوعت مجالات استعمال اللغات ومستوياتها تنوعاً كبيراً ، وعلم اللغة وإن كان يهدف إلى بحث البنية اللغوية ، فإن الرؤية الوظيفية للغة تجعل بحث مجالات الاستعمال أمراً ضرورياً .

المصادر والمراجع

1- Halliday, M.A.K, Exploration in the Functions of language Edward Arnold, P.22, 1973 .

2- Ibid P.22 .

3- Chomsky, N, Aspects of the theory of Syntax . MIT press . Mass. U.S.A, 1965 .

4- Chomsky, N, le language et la pensee . Paris : payot, 1970, P 24-27 . 102 – 106

نقله د/ ميشال زكريا : الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م ، ومازن الوعر : دراسات لسانية تطبيقية ص ٤٦ ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٩م .

5- Levinson , S.C : pragmatics, P. cambridge University press 1983 .

6- Ibid, P.12 .

7- Crystal, D : A dictionary of linguistics and phonetics . Blackwell Great Britain . P. 271 , 1994 .

8- Chomsky, N : Syntactic Structures the Hague 1957 .

9- Chomsky, N : Studies on Semantics Generative Grammar, the Hague . Mouton, 1972 .

10- Chomsky . N : Aspects of the theory of syntax .

11- Johnson , D.E., on Relatonal constraints on Grammars, 1977 .

١٢- أندريه مارتينيه : وظيفة الألسن وديناميتها ، ترجمة نادر سراج ص ١٥ ، ط١ ، بيروت – لبنان ١٩٩٦م .

13- Seren , P. (Ed.) Semantic Syntax, P. 110 , London, Oxford, 1974 .

١٤- أندريه مارتينيه : وظيفة الألسن وديناميتها .

15- Brown, G. and George yule : Discourse Analysis . C.U.P. London 1983 , P. 20 .

16- Ibid : 23

17- Ibid : 24 .

١٨- د/ مصطفى ناصف : اللغة والتفسير والتواصل ص ٢٤١ ، المجلس الوطنى الكويتى ١٩٩٥م .

١٩- جون كوين : بناء لغة الشعر ، ص ١٠١ ، ترجمة وتقديم وتعليق د/ أحمد درويش ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٩٣م .

20- Halliday, M.A.K : An Introduction to Functional Grammar , P.19 .

21- Ibid : P. 8 .

٢٢- محمد الحناش : البنيوية فى اللسانيات ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٨٠م .

23- Wells Rulon S : " Immediate constituents " , Language , P 84, 1947 .

24- Crystal, David : A dictionary of Linguistics and phonetics, oxford basil Blackwell L td., P. 321 , 1985 .

25- Lyons, John : Introduction to theoretical linguistics , cambridge : cambridge University press, P. 170, 1968 .

26- Rolins , R.H : General linguistics : An Introductory Survey, UK : longman Group L.td., P. 283, 1981 .

27- Ducrot, oswald : " Nonsignificative units " & "Significativeunits", Encyclopedic Dictonary of the Sciences of Language by Ducrot & todrov . translated by catherine porter, oxford : Basil Blackwell Ltd., PP. 169 – 76 & PP 199-203 , 1979 .

28- Sowinski, B : Textlinguistik, S:20, Kollhammer – Stuttgrat 1983 .

نقله د/ سعيد حسن بحيرى : علم لغة النص ، المفاهيم والاتجاهات ص ٣٧ ، ط١ ، الأنجلو المصرية ، ١٩٩٣م .

٢٩- د/ كمال بشر : دراسات فى علم اللغة ، القسم الثانى ، ص ١٧٢ – ١٧٨ ، دار المعارف ١٩٦٩م .
30- Dressler , W.U. (Hrsg) : Textlinguistik S: 6 .
نقله د/ سعيد حسن بحيرى : علم لغة النص ، ص ٣٧ .
31- Sominski, B : Textlinguistik, S: 21 .
نقله د/ سعيد حسن بحيرى : علم لغة النص ص ٣٨ .
٣٢- عبد الرحمن الحاج صالح : اللسانيات ، المجلد الثانى ، ١/٥٤ ، حاشية ١٠٦ ، ١٩٧٢ .
33- Hartmann, R.R. K and Stork, F.C : Dictionary of Language and linguistics P. 91 – 92 , London , 1972 .
34- Garvin , P. L : the prague school of linguistics, edited by Hill, A.A 1969 .
35- Ibid :
36- Roman Jakobson : Implications of language Universals for linguistics, in J.H. Greenberg ed , universals of language . cambridge Mass : the M.I.T. press, 1963 .
37- Caseriu, Eugenio, Textlinguistik , SS 56 – 57 .
نقله د/ محمد العبد : اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة ، بحث فى النظرية ص ١٢٧ ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١ ، القاهرة ١٩٩٠م .
38- Coseriu, op. cit, S.58 .
نقله د/ محمد العبد : اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة ص ١٢٨ .
39- Brown, G. and George yule : Discourse Analysis P.20 .
40- Los chmann, Marianne,vom lesen zum Sprechen,S. 10.
نقلاً عن د/ محمد العبد: اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة،بحث فى النظرية ص١٤.
41- Coulthard, Malcolm, An Introduction to discourse Analysis, longman Group Ltd, England, 1977, P.1 .
٤٢- د/ عبده الراجحى : النحو العربى والدرس الحديث ، بحث فى المنهج ص ٤٦ ، دار المعارف الجامعية ، الإسكندرية .
٤٣- أندريه مارتينيه : دارسات فى النحو الوظيفى ، ص ١٥- ١٧ .
44- Sampson , G: Schools of linguistics, P : 27, Hutchinson , London, 1980 .

45- Firbas, J: on the concept of communicative Dynamism in the theory of Functional Sentence perspective ' sbornik praci filosoficke fakulty Branesk university A 19, PP. 135 – 144, 1971 .
46- Hellig, G. Geschichte der neueren Sprachwissenschaft, S. 47 ff .
نقله د/ سعيد حسن بحيرى : عناصر النظرية النحوية فى كتاب سيبويه ، محاولة لإعادة التشكيل فى ضوء الاتجاه المعجمى الوظيفى ص ٩ ، الأنجلو المصرية ، ط١ ، ١٩٨٩م .
47- A demeni, W. Der deutsche Sprachbau, S. 3 ff .
نقله د/ سعيد حسن بحيرى : عناصر النظرية النحوية ، ص ٩ .
48- BenVeniste. E : problemes de linquistique generale . I Gallimard . Paris . 1966, P 131 .
49- Halliday, M.A.K : "Exploration in the functions of language " P. 51 .

فهـــرست